14 me Année No. 702

Lundi — 16 — 12 — 1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٧٠٢ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٢ محرم سنة ١٣٦٦ — ١٦ ديسمبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

احذرِى أيتها العربُ

للاستاذ محمود محمد شاكر

اليوم ، لقد أحدّ الجزَّار شفرته وتشمرعن ساعديه ، وأقبل على الذبيحة يريدُ أن ينحرَها نحرًا فذًّا ، وهى راضية عنه داعية له ، مستسلمة بين يديه ، مقرّة له بأن ذبحها هو نجاتُها ، وأن شفرته هى كما قال الراجزُ فى دَلْوِه : « فاتِـاتى ومِلؤُها حياتى » ! !

وبالأمس — فى سنة ١٨٨٢ — وطئت إنجلترا أرضَ مصر لتدعم ما تزعزع من أركان عرشها ، كما زعمت وزعم لهـا من لا يتورّع ولا يتحرّج ، ومنذ ذلك اليوم والسكين ماضٍ فى تمزيق أشلاء ذلك البدنِ الخدّر بالأكاذيب وبالغفلة وبالجهل وبالخيانة ، والذى كان يسمّى العالمَ العربى والعالم الإسلامىّ . وما مضى إلا قليلٌ حتى طارتْ أشلاء هذا البدن بددًا متفرقة مفصَّلة ، ذهبتْ مصر وحدها ، وذهب الشامُ وحدَه ، وذهب العراق وحده ، وذهبت مراكش وحدها ، وذهبت طرابُلس وحدها ، وذهبت تركيا وحدها ، وقطعت عُنق الخلافة ، وقضى الأمرُ .

واليوم يوشِكُ أن يكون ما كان بالأمس ولكن على أسلوب آخر : أن تحشد هذه المِزَقُ المقطعة حشدًا جديدًا لتساق إلى يوم الحشر ، لتساق مخدَّرة بالأكاذيب وبالغفلة وبالجهل وبالخيانة مرةً أخرى إلى الهُوّة المضطرمة التى لا تُبقى على حىّ ، إلى الحرب الثالثة .

* * *

هذه إنجلترا تريدُ مرّةً أخرى أن تعود بجحيلها ورجالها وأعوانها وصنائعها ، وبمداوراتها وسياساتها ، لتضرب الضربة الأولى كما ضربتها فى سنة ١٨٨٢ ، وتخضع أعناق المصريين شاهدَهم وغائبَهم لأحكام معاهدة عجيبة ظاهرها فيه الرحمة (أى الدفاع عن مصر والشرق) وباطنُها من قِبَله العذاب (أى نكال الحرب الثالثة) . ولن تفرغ منها — إذا قدّر الله أن تفرغ ، ولا قدَّر — حتى تحملها لتدور بها على أمم العرب واحدةً بعد واحدة ، لتنال منها صكًّا مكتوبًا ، بالأسلوب الإنجليزى ولا ريب ، بجعلها جميعًا فى قبضة الأسد البريطانى ليوم الحشر ، فمنذئذ تسوقهم جميعًا كدأبها إلى المجزرة الكبرى مُقدَّمين فى الصفّ الأول ليكونوا قُربانًا لجبّار الحروب ، ووقاء للدم الإنجليزى أن يُهراق منه فى حروب الإمبراطورية البريطانية إلا ما لا بُدّ منه تحِلّة القسم وردّ العين الحاسدة ، كما حدث فى الحرب الأولى والحرب الثانية ، حيث لم يُسْفَك

ـن الدم الإنجليزي إلا الأقل ، وحملت العبء كله تلك الأنعام البشرية التي جُمعت من الأسود والأبيض ، من بقاع إفريقية وأرجاء الهند ومن نواحي هذه الإمبراطورية التي تقبّل الشمسُ مواطىء أقدامها حيثما دارت في مدارها .

فاحذري أيتها العرب ... احذري .

إن السياسة البريطانية هي السياسة البريطانية ، أي هي الجشعُ المحتالُ الخادعُ الذي يستلُّ منك أعزَّ ما تحرصُ عليه بالشدّ والإرخاء والترغيب والترهيب والظهور والاختفاء ، حتى تنهارَ النفوسُ وتسكنَ من جهدٍ أو إعياء . انظري ماذا فعلت ، أو ماذا كانت تريد أن تفعلَ بمصر . شهرٌ بعد شهرٍ بعد شهرٍ والدُّنيا كلُّها من حولنا تمج مجيجاً بالمفاوضة والمعاهدة وبالأخذ والردّ ، وبالموافقة والمعارضة ، وباللين والشدة ، وبالسكينة والصخب ، حتى دارت الرؤوس على أعناقها ، وتحيّرت العيون في محاليقها ، وتشتّت منارُ الهُدَى وخيفَ على صاحب الرأي أن يزول عن رأيه ، وما زالت إنجلترا تمدُّ للطامعين مداً وهم يعمَهون وراء ألفاظها الخلاَّبة حتى أعيتهم ، وكادت لهم كيداً شديداً حتى أطفأتهم فطفئوا ، وأرادوا أن يضربوا على عقول هذه الأمة وألسنتِها بالقهر والعنف والاستبدادِ حتى تدعَ العقلَ واللسانَ ، وتقبلَ منهم ما أرادوا هم أن يفرضوه علينا فرضاً .

ولكن يأبى الله أن يكونَ لهذا التكيد كله قرارٌ ، فهذه الفئة التي ظنّت أنها سوف تخدعُ إنجلترا عن نياتها الملفّقة في الألفاظ الكاذبة ، قد جاءها البرهان الساطعُ القاطعُ ، بأن هذه الدولة « المفاوِضة » تضع الألفاظَ على قدرِ ما تريدُ ، لا على قدرما يريدُ مفاوضُها أن يفهم . فإذا خيِّلت له نفسُه أنه فاهمٌ من النصّ ما يقول لها ويبين عن فحوى ألفاظها أرسلت عليه شيئاً يردّه إلى صوابه . فبالأمس كان المفاوض المصريّ يزعم لمصر أنه جاءها « بوحدة وادي النيل » ، وأن النصّ المتعلق بالسودانِ كان خيراً كلّه ، وأنّ وأنّ ... فما أصبح الصباحُ حتى طلع عليه شيء من أشياء بريطانيا يقول له : جاوزتَ حدّك فاستبقِ ، وأن بريطانيا لا ترضى هذا التفسير المصنوع من جانب واحد ، وأن السودان وديعة في اليد البريطانية ؛ والودائع مستردّة ، والخيانة فيها تفريطٌ لا يليقُ بالشرف البريطاني ! فنحنُ في السودان أمناء عليه ، ولن ندعه لمصر المادية الباغية تفعل فيه ما تشاء كأنه جزء منها ! ! بل لا بدّ لنا من أن نبقى هناك حرّاساً حتى يبلغ السودان رشده بعد السنين التي يقتضيها بلوغه الرُّشد ! وعندئذ يكون للسودان أن يختار بعد أن يكون قد تهيأ لحكم نفسه بنفسه .

هذه هي السياسة الصريحة المتكشفة ، وهذه هي بريطانيا على حقيقتها ؛ وهذه هي ألفاظها المكتوبة مفسرةً في تصريح حاكم السودان . فليت شعري ما الذي يظنّه امرؤٌ في نفسه ذرّةٌ من الإيمانِ بحقّ الإنسان في الحرّية . ما الذي يظنه كائناً بعد ذلك في تفسير نصوص المعاهدة التي يُرادُ لنا أن نرتبط بها مع هذه الإمبراطورية ؟ ومهما تكن نصوصُ المعاهدة ، ومهما يُقَلْ في تسويغها أو تفريطها ، وسواء أكانتْ هذه المعاهدة المعروضة اليوم أم غيرُها ، فهل يحِلُّ لمصريٍّ أو عربيٍّ أن يأمنَ على بلاده بعد هذه الخديعة التي لا تعرفُ وَرَعاً ولا حياء ؟ !

وليس هذا فحسب ، لقد قال حاكم السودان ما شاء ؛ فماذا كان جوابُ الحكومة المصرية على هذا التصريح العجيب !

كان الجواب أن ينشر رئيس الوزراء كلمة يحتج فيها على تصرف حاكم السودان ، وأنه قد تجاوز حدود وظيفته من حيث هو حاكم إداري ، ومن حيث هو موظف مصري بريطاني معاً ! أيكون حقاً حاكم السودان هو المسئول عن تصريحه ، وهو ينسبُ مايقول إلى الحكومة البريطانية بلسانه ! هذا ، ومن الغفلة أن يظن ظانٌّ أن رجلا إنجليزياً يدير شيئاً من أمور هذه الامبراطورية يجرؤ أن يتكلم من ذات نفسه بالنيابة عن حكومته ويوقعها في ورطة سياسية كهذه الورطة . إذن أفما كان أولى وأجمل وأكرم وأنبل وأشجع أن يوجه الاحتجاج رأساً إلى الذي أنطق هذا الرجل بما نطق به وأن يقال لهذه الحكومة البريطانية « المفاوضة » إنك أنت الملومة لا هذا

الرجل ! ولكن هكذا كن .

فما الذى سيكون غداً أيها الرجال المدافعون بأقلامكم وألسنتكم إذا جاءتكم لجنة الدفاع المشترك ، وجاء البريطانى ، ونطق لسانه بما لا تطيقه هذه الأمة ولا ترضى عنه ؟ أتظنون أن موقف الرجال المصريين الذين سيختارون ليكونوا أعضاء فى هذه اللجنة ممن نستطيع أن « نعمل معهم » ، سوف يكون أكرم أو أولى أو أشجع من موقف رئيس الوزارة السابق حيال تصريح حاكم السودان ؟ ستقولون كما قلتم : هـذا مطعن فى الضمير الوطنى المصرى ... وكلا ! ليس هذا مطعناً ، فإن الرجال الذين سيختارون لهذه اللجنة سيكونون ممن « صُنعوا على عين بريطانيا » منذ احتلت مصر فى سنة ١٨٨٢ إلى هذا اليوم . ولأن يقال إن هذا الذى نقول مطعن خير من أن تُلقى مصر كلها تحت أقدام بريطانيا وفى تنور حروبها ، لتكون دماء أبنائها فداء للدم البريطانى الطاهر المقدس .

* * *

أيتها العرب احذرى ... احذرى هذا المصير الذى يراد لمصر لا قدر الله أن تصير إليه . ولئن كان هذا يومنا نحن ، فغداً يومكم ليعرض عليكم مثل الذى عُرض علينا ، لتكون لكم « لجنة دفاع مشترك » كلجنتنا نحن ، فاحذرى أيتها العرب . ولا تقرى بينك وبين بريطانيا معاهدة أبداً ، فإن بريطانيا تريد بجمعكم اليوم على مثل هذه المعاهدة ، كالذى أرادته بكم جميعاً يوم وطئت أقدامها أرض مصر فى سنة ١٨٨٢ ، تريد أن تمزقكم بعد أن تكونوا وقوداً لنيران الحرب الثالثة .

أيتها العرب احذرى .. فإذا كنت نازلة فى ميدان الحرب الثالثة فانزليها حرة لتموتى حرة ، ولكن لا تُلقى بفلذات الأكباد فى أتون الحرب المسعورة ، ليكونوا هناك عبيداً ويموتوا عبيداً ، كما تريد المعاهدات الإنجليزية بنا وبأبنائنا وبناتنا وأوطاننا

أيتها العرب احذرى ... لقد لبثت إنجلترا تدس لكم وعليكم وتنشئ فيكم أجيالا من الخلق صاروا لها صنائع وأعواناً ، أرادوا ذلك أو لم يريدوه ، وعرفوه أو جهلوه ، وعين إنجلترا بصيرة نفاذة فهى تختارهم وتمهد لهم ، وتحملهم بسلطانها وبحيلتها وبتهديدها حتى ترفعهم إلى الذروة التى تجعلهم أهلا للمكانة فى بلادهم ، ثم لا تزال تعمل هنا وهناك بأنامل بصيرة قادرة متدسسة حتى يتم اختيارهم ، فيتولوا هم زمام هذه الشعوب المسكينة ، ثم تقول لهم كما قال الأول :

فعِثْ فيما يليك بغير قصدٍ فإنى عائثٌ فيما يلينى

وإذا هؤلاء المساكين الذين ارتفعوا إلى غير أقدارهم ومنازلهم يكيدون لأممهم من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون ، وإذا سياسة الأمم الناهضة فى أيد لا تُحسن إلا العيث والفساد ، ومصايرها على ألسنة لا تُحسن إلا التغرير والدهان والمالقة .

عدد « الرسالة » الممتاز

سيصدر بعون الله عدد « الرسالة » الممتاز فى الأسبوع الأول من شهر يناير سنة ١٩٤٧

أيتها العرب احذرى .. ودعى المفاوضة والمعاهدة بينك وبين بريطانيا حتى ترد إليك كل حقوقك كاملة غير منقوصة ولا مهضَّمة ، فإذا فعلتْ فانظرى فى مراشدك . أما إذا قال لك هؤلاء : وماذا تفعلين أيتها العرب إذا لم تفاوضى إنجلترا وتعاهديها ؟ إذا ألقوا إليك هذا السؤال العاقل الحكيم الذى يفرض عليك أن تتركى نصيباً من الحرية من أجل كواذب الآمال والوعود ، فاعلمى أن هذا التعاقل « الشديد » فساد فى الطبائع التى تلقيه عليك :

يرى الجبناء أن العجزَ عقلٌ وتلك خديعةُ الطبع اللئيم

* * *

وأنتم أيها الكتاب العرب : هذه أمانة القلم تعرض اليوم عليكم ، وهى أثقل الأمانات ، فاحملوها بحقها أو دعوها بحقها ، فإن الأيام أسرع مُضياً من البرق فى حواشى الغمام . ومن حمل أمانته فعليه أن ينذر قومه قبل أن يأتى يوم لا تغنى فيه النُذر ، وقبل أن يأتى يوم لا يردّ فيه البكاء على فائت !

محمود محمد شاكر

على هامش النقد :

غفلة النقد فى مصر

للأستاذ ســـيد قطب

فى تقديرى أن الضجة المفتعلة التى أثيرت حول ذلك الكتاب المريب ، كتاب الشيخ عبد الله القصيمى ، والتى انزلق فيها بعض الكبار مخدوعين بما صوره لهم المؤلف من مخاوف تحيط به وبكل تفكير حر فى المملكة السعودية ، هذه المخاوف التى تدنيه من حبل المشنقة بسبب كتابه ... إلى آخر ما أجاد المؤلف تمثيله من الأدوار ...

فى تقديرى أن هذه الضجة وذلك الانزلاق فضيحة أدبية لمصر ، وقد تؤخذ دليلاً على غفلة النقد فيها إلى حد مخجل .

ولقد ”قدّم إلىّ“ هذا الكتاب ، وأديرت على سمعى « الاسطوانة » التى أديرت على أسماع الكثيرين ، وتأثرت ساعتها وتحمست ؛ لحياة كاتب ليست بالشىء الهين ؛ وإهدار هذه الحياة بسبب رأى أو فكرة مسألة لا يحتملها القرن العشرون فوق ما فى الفكر الإسلامى من سماحة تبرئه من الجنوح إلى طريقة محاكم التفتيش .

ولكننى حين عدت فقرأت الكتابَ بردت هذه الحماسة ، وفتر ذلك التأثر ؛ لأننى لم أجد إلا كاتباً مريباً ، يتناول مسائل ميتة فى الغالب ، ومشاكل محلولة — حلها الزمن فى البيئة الإسلامية منذ نصف قرن على الأقل — ويزيد عليها فكرة مسروقة بنصها وبجزئياتها وبشواهدها من كاتب شاب يعيش وكتابه حديث الصدور لم يبعد به الزمن فينسى ... ليتخذ من ذلك كله ستاراً طويلا عريضاً يلف به دعوة غير نظيفة ، للاستعمار والمستعمرين .

ولم أشعر أن الرجل فى خطر ، فأمثال هؤلاء يعرفون طريقهم جيداً — كما قلت فى مرة ؛ ولا خوف عليهم من الشنق ولا غيره . ولو كانوا يعرفون أن الشنق ينتظرهم حقاً ، لما أقدموا على فعلتهم ؛ لأن الحياة على كل حال أغلى من كل ثمن سواها قد يأتى به الكتاب !

ووجدت أنه من المهانة للفكر أن أنزلق فأكتب عن كتاب تافه مريب مسروق كهذا الكتاب ، يسلك صاحبه هذا السلوك فى الاحتيال لبعث الاهتمام به ، وإثارة الضجة حوله ؛ كما أنه يثبت على غلافه شهادة من نفسه لنفسه ؛ هذه الجملة المتبجحة : « سيقول مؤرخو الفكر : إنه بهذا الكتاب بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل » !

ثم ما أشعر إلا وضجة عجيبة يثيرها بعضهم حوله . وهنا فقط وجدت أن لا بد من كشف الستار . فهى فضيحة . وفضيحة لمصر خاصة ، أن تبلغ غفلة النقد فيها هذا المستوى العجيب !

***

لكى ننقد كتابا يعالج مشكلات اجتماعية ونفسية وإنسانية يجب أن نسأل أنفسنا هذه الأسئلة الثلاثة :

١ — هل يعالج الكتاب مشكلات حية تعيش فى هذا الأوان ؟

٢ — هل نفذ إلى صميم هذه المشكلات ، وصورها التصوير الصحيح ، واقترح لها الحلول المناسبة .

٣ — هل كان أصيلا فى تصويرها وعلاجها ؟

وقد سألت نفسى هذه الأسئلة ، وكان الجواب باختصار :

١ — إن المؤلف « دون كيشوت » جديد يطعن برمحه طواحين الهواء يحسبها فرساناً ، ويشق بها زقاق الخمر يحسبها قساوسة ! ويحمل حملات شعواء على أولئك الذين يمدحون الجهل ويذمون العلم ، ويقررون أن الجنة لا يدخلها إلا البله ، ويؤمنون بأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إنما بعثت بخراب العالم ...

ولكنه لا يقول : إن هذا كله كان من أوهام العوام ، كان خرافات سوداء فى عهود الظلام ، ثم انتهت بانتهاء هذه العهود المظلمة ... لا يقول هذا ، إنما يتهم العقلية الإسلامية بأن هذه هى أم مشكلاتها وعقائدها دائما أبدا ليصل من هذا الطريق الملتوى إلى تحقير هذه العقلية فى جميع الأزمان ، وإلى إيثار العقلية الأوربية لأنها خلعت ربقة الدين ، وربقة الخلق ، وربقة التطلع إلى الله ،

وانطلقت تهدف إلى الأرض وحدها ، ولا تعلق نظرها مرة واحدة بالسماء . لأن التطلع إلى الله كفيل بإفساد الحياة !

وفى ثنايا هذا الذى يبدو تحررا فكريا فى ظاهره ، يخدع المخدوعين ممن يحسبون التحرر الفكرى مجرد التحلل من الأديان والأخلاق على أى وضع من الأوضاع ، فى ثنايا هذا يدس ما نمل الكتاب كله قد أنى لأجله : يدس الإيحاء للشرق العربى المسلم بأن لا حق له فى كراهة الاستعمار والمستعمرين ، لأنهم ورثة الأرض الذين يستحقون كنوزها وخيراتها ، لأنهم يتطاعون إلى الأرض وأسبابها ، ولا يعلقون أنظارهم بالله ولا بالسماء !

وهناك مسألة أو مسألتان حيتان فى الكتاب ، ولا تزالان تعيشان ، لأنهما إنسانيتان : مشكلة الإيمان بالإنسان ، ومشكلة الإيمان بالأديان .

فأما الأولى فهى قضية الأستاذ عبد المنعم خلاف فى كتابه « أومن بالإنسان » . وقد شغلت من كتاب « هذى هى الأغلال » نحو أربعين صفحة أولا ، وتغلغلت فى ثنايا الكتاب كله أخيراً .

وأما المشكلة الثانية فقد عولجت بسلسلة من المغالطات والأغلاط تتلخص فى أن روح التدين تخالف روح الحياة ، وأن التدين لا يمكن أن يكون رجل دنيا ... وهذا منطق لا يستحق الاحترام لأن الشواهد الواقعة تنفيه ، ولأن الدين روح حافز للعمل ولا سيما فى الإسلام الذى يعصب عليه المؤلف جميع أوزار التأخر والانحطاط وإن عاد فالتوى ونفى عن الدين ذاته هذه الأوزار فى نفاق ظاهر يستحق الاشمئزاز دائما ، ولا يثير الاحترام .

٢ - ولعل الجواب عن السؤال الثانى يكون قد اتضح من الجواب على السؤال الأول ؛ فالنفاذ إلى صميم المشكلات يستدعى قسطا من الاستقامة والإخلاص . وهذان العنصران مفتقدان فى الكتاب كله .

فهو مثلا يستخلص سمات التفكير الإسلامى من أوهام العامة وخرافاتهم ، ومن أقوال لبعض المتصوفة وأمثالهم ، بدل أن يستخلصها من مجموعة المفكرين والمشرعين والفاتحين والعاملين فى التاريخ الإسلامى الطويل . فالحضارة الإسلامية كلها وعمارة الأرض وسياستها فى جميع العصور ليست داخلة فى حساب المؤلف ، وليست دليلا على شىء من خصائص العقلية الإسلامية . إنما الذى يصور هذه العقلية وحده دون سواه . أقوال كهذه الأبيات :

من أنت يا رسطو ومن أفلاط قبلك قد تجرد
ما أنتمو إلا الفراش رأى السراج وقد توقد
فدنا فأحرق نفســـه ولو اهتدى رشداً لأبعد

وكتابات للمتصوفة والزهاد يذمون الدنيا والعلم والعقل ، ويمدحون الزهد والبلاهة والغيبوبة .

أولئك هم جميع المسلمين فى نظر المؤلف ، وهذه هى عقليتهم الإسلامية التى يجرد قلمه لينسفها نسفا ، فيقف جماعة من النقاد فى مصر يعجبون بهذا القلم القوى البتار !!!

ومثل هذا الالتواء المريب يواجه مسألة التدين ومسألة الأخلاق ، ومسألة الأرض والسماء ، فلا ينفذ إلى صميم مشكلة واحدة ، لأن عنصرى الاستقامة والإخلاص لا يتوافران .

٣ — أما الجواب عن السؤال الثالث فهو فضيحة الفضائح فما عهدت أن يمد مؤلف إلى مؤلف حى ، فيقبض فصولا كاملة من كتابه قبضا ، ويمهرها بتوقيعه ويطلع بها على الناس . جرأة نادرة . ولكنها جازت على النقد فى مصر !

لقد كنت — وما زلت — أفهم ، أن الناقد قارىء متتبع لسير الفكر . فهذا هو الشرط الأول للناقد كيما يستطيع أن يؤرخ خطوات الفكر ، ويعرف من السابق ومن اللاحق .

وأنه يتحرج أشد التحرج من إصدار حكم بالسبق والأهمية ، إذا لم يكن قد اطلع على كل ما سبقه أو جله ، لأنه مسئول عن تقرير أحكامه للضمير وللتاريخ وللقراء .

فما بال كتاب صدر منذ عهد قريب ، ونشر قبل ذلك فصولا فى مجلتين مقروءتين ، ثم يجىء كاتب ، فيهجم هجوما بشما على فكرته ، وطريقة عرضها ، وبراهينها وأدلتها ، ثم لا يجد ناقداً يقول له : مكانك فهذا استغفال !

لقد عملها الرجل ، ولم يجد من يقول له هذه الكلمة فى مصر إلا بعد حين !

لقد عملها وهو يتحدى : « سيقول مؤرخو الفكر إنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل » !

ترى كان الرجل يتوقع هذه الغفلة ، أم إنه وقد نزع عن نفسه « الأغلال » لم يكن يبالى ... وقد صدّقت الأيام ظنه أو تكاد !

***

إن فى مصر غفوة نقد منشؤها أن كثيراً من الكبار الذين كانوا يتولون حركة النقد لا يعودوا يقرأون . وإذا قرأوا لم يقرأوا للشبان ، استصغاراً منهم لشىء أولئك الشبان .

وهم أحرار فى هذا ، ولا يستطيع أحد أن يجبرهم على قراءة معينة . فهم فى دور الكهولة والشيخوخة كثيرو المتاعب ، ولأنفسهم عليهم حق ، ولهم أن يقضوا أوقاتهم فى لذائذهم الحسية والفكرية حسبما يشتهون . فإن من حقهم أن ينالوا الراحة والحرية بعد الجهاد الطويل .

ولكن عليهم فى مقابل الراحة والحرية ألا يتعرضوا للنقد ، فيصدروا فيه الأحكام إلا بعد تتبع لحركة الفكر فى كل كتاب يصدر فى الفن الذى يريدون نقده ، وإصدار حكم عليه . فذلك هو واجب الضمير الأدبى فى أضيق الحدود .

إن القراء يثقون بهم إلى حد ، وهذه الثقة تدعو إلى تحرى الدقة ، فلا يفتون بغير علم ، أو بعلم ناقص . فتلك تبعة ثقيلة على الرقاب .

وأنا واثق أن بعض الذين كتبوا عن كتاب الأغلال ، ما كانوا ليكتبوا لو أنهم أولا قرأوا الكتاب كله ولم يكتفوا بتصفح بعض فصوله . ثم لو أنهم ثانيا كانوا قد قرأوا كتاب الأستاذ عبد المنعم خلاف ، مهما تكن حيلة الرجل بارعة ومهارته فى الدعاية قوية .

***

وقبل أن أنهى هذه الكلمة أوجه إلى فريق آخر من المتزمتين لم يقابلوا الكتاب بهذه المقابلة . بل ثاروا عليه وناهضوه وشغلوا أنفسهم بالاحتجاج عليه . وقيل لى : إن بعضهم أخذ يؤلف كتبا فى الرد عليه .

هؤلاء يشاركون — من غير قصد — فى الضجة المفتعلة التى يثيرها الرجل حول كتابه وحول نفسه .

هونوا على أنفسكم ، فالدنيا بخير !

لقد ترددت مرة ومرة فى أن أكتب عن هذا الكتاب التافه المريب ؛ لأن كل ضجة حوله تبلغ به الغاية التى أرادها له صاحبه ومن يهمهم نشر مثل هذه الكتب فى الشرق العربى الناهض لمجاهدة الاستعمار .

ولقد كان رجال الإرساليات التبشيرية فى الشرق يتعمدون إثارة الضجيج حول حوادثهم فى مصر منذ سنوات ، فى خطف بعض الفتيان والفتيات ، ليبرهنوا للجمعيات التى أرسلتهم أنهم ذوو خطر ، وأن لحركتهم فى دار الإسلام صدى .

أقول كانوا يتعمدون إثارة الخواطر ، بافتضاح الحوادث ليبلغوا هذه الغاية ، وصاحبنا فى طرائقه ليس ببعيد عن هؤلاء .

فلا تبلغوه غايته من وراء الضجيج والصياح ! إنكم أناس طيبون أيها المتزمتون . فلا عليكم من الكتاب والكتاب .

ضجة فارغة حول كتاب مريب أمطرتنا دور الدعاية بمثرات مثله فى أيام الحرب . دعوه ليموت فإنه ميت ، ولن تنفخ فيه الحياة ضجة مفتعلة ، منشؤها الخداع والإيهام .

ولولا أنى أنعى على النقد فى مصر تهمة الغفلة ما كتبت هذه الكلمات .

سيد قطب

صور من العصر العباسي :

أطبـــاء الخلفاء العباسيين

للأســـتاذ صلاح الدين المنجد

— ١ —

كان أهل جنديسابور يعنون بالطب . وكان لهم حذق بهذه الصناعة وعلم من زمن الأكاسرة . ذلك أن سابور لما تزوج ابنة القيصر فيليبس بعد افتتاحه انطاكية بنى لها مدينة على شكل قسطنطينية ، وهى مدينة جنديسابور ونقلها إليها ، فانتقل معها من كل صنف من أهل بلدها ممن هى محتاجة إليه ، ومنهم أطباء أفاضل . فلما أقاموا فيها ، بدأوا يعلمون أحداثاً من أهلها ، ولم يزل أمرهم يقوى فى العلم ، ويتزايدون فيه ، ويرتبون قوانين العلاج على مقتضى أمزجة بلدانهم ، حتى برزوا فى الفضائل ، وصار أناس يفضلون طريقتهم على اليونانيين والهند ، لأنهم أخذوا فضائل كل فرقة فزادوا عليها بما استخرجوه من قبل نفوسهم ، فرتبوا لهم دساتير وقوانين وكتباً جمعوا فيها كل حسنة . ولم يزالوا كذلك حتى جاءت الدولة العباسية ، فأصبح أهل جنديسابور أطباء للخلافة والخلفاء ما عدا قلائل منهم[١] .

وقد كان هؤلاء الأطباء من أهل جنديسابور ينالون منزلة كبرى فى كل مكان . وكان وجودهم فى بلد ما سبباً لكساد الأطباء الآخرين . وقد ذكر الجاحظ عن أسد بن جانى الطبيب البغدادى أنه أكسد مرة . فقال له قائل : السنة وبئة والأمراض فاشية ، وأنت عالم ، ولك صبر وخدمة ، ولك بيان ومعرفة . فمن أين تؤتى فى هذا الكساد ؟ قال : أما (واحدة) فإنى عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب ، لا بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون فى الطب . واسمى (ثانية) أسد . وكان ينبغى أن يكون صليبا ومرايل ويوحنا ... وكنيتى أبو الحارث ، وكان ينبغى أن تكون (أبو عيسى) (وأبو زكريا) ... وعلىّ رداء قطن أبيض ، وكان ينبغى أن يكون رداء حرير أسود . (وأخيراً) لفظى لفظ عربى ، وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل جنديسابور[١] .

والحق أن الخلفاء حفلوا بهؤلاء الأطباء . وكانت أسرة بختيشوع ذات مكانة كبرى عندهم ، ومنها كان أطباؤهم ووزراؤهم ومنها كان أيضاً الأطباء المحترفون ، وأطباء البيمارستانات ، ومعلمو الطب والفلسفة[٢] .

* * *

أول من تقدم باحضار رأس هذه الأسرة إلى بغداد ، هو المنصور . فإنه لما بنى مدينة السلام ببغداد سنة ثمان وأربعين ومائة للهجرة أدركه ضعف فى معدته وسوء استمراء ، وقلة شهوة وكان كلما عالجه الأطباء ازداد مرضه ، فتقدم إلى الربيع بجمعهم ، فلما اجتمعوا قال لهم المنصور : أريد من الأطباء فى سائر المدن ، طبيباً ماهراً . فقالوا : ما فى عصرنا أفضل من جورجيس بن بختيشوع رئيس أطباء جنديسابور ؛ فهو ماهر فى الطب . فأمر المنصور باحضاره ، فأنفذه العامل بجنديسابور إلى حضرة الخلافة بعد ما امتنع عن الخروج ، ووصى ولده بختيشوع بالبيمارستان وأموره التى تتعلق به هناك . واستصحب معه تلميذيه إبراهيم وعيسى . فلما وصل إلى مدينة السلام أمر المنصور باحضاره . فلما أحضر دعا للمنصور بالفارسية والعربية . فعجب المنصور من حسن منطقه ومنظره ، وأمره بالجلوس ، وسأله عن أشياء أجابه عنها بسكون . فقال : قد ظفرت منك ياجورجيس بما كنت أطلب . وخبره بابتداء علته ، وكيف جرى أمره منذ ابتداء مرضه . فداواه حتى برئ ، وعاد إلى الصحة فأنزل فى أجمل موضع من دوره ، وأمر أن يجاب إلى كل ما يسأل . وأهدى إليه ثلاث جوار روميات حسان مع ثلاثة آلاف دينار . فأنكر جورجيس أمرهن وقال لتلميذه عيسى : يا تلميذ الشيطان ! لم أدخلت هؤلاء إلى منزلى ؟ ردهن إلى أصحابهن . فأعادهن . فسأله المنصور لم رددت الجوارى ؟ قال : لا يجوز أن يكون مثل هؤلاء فى منزلى ،

---

(١) تاريخ الحكماء (ليبسك) ص ١٣٣ .

(١) البخلاء (ليدن) ص ١٠٩ .

(٢) انظر مقالة مايرهوف فى محاضر جلسات الأكاديمية الروسية للعلوم مجلد ٢٣ سبتمبر ١٩٣٠ . ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتاب : « التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية » ١٩٤٠ .

لأنا معشر النصارى لا نتزوج أكثر من امرأة واحدة، فما دامت المرأة حية فلا نأخذ غيرها فحسن موقع هـذا من الخليفة، وأمر في الوقت أن يدخل جورجيس إلى حظاياه وحرمه بلا إذن، وزاد موضعه عنده.

وظل جورجيس يخدم المنصور حتى مرض سنة اثنتين وخمسين ومائة مرضاً صعباً. وكان المنصور يرسل إليه في كل يوم يتعرف خبره. فلما اشتد مرضه أمر بحمله على سرير إلى دار العامة وخرج ماشياً إليه وتعرف خبره وسأله عن حاله. فخبره جورجيس بها، وقال له: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في الانصراف إلى بلدي لأنظر أهلي وولدي؛ فإن مت قبرت مع آبائي. قال له: يا جورجيس اتق الله وأسلم، وأنا أضمن لك الجنة. قال جورجيس: قد رضيت حيث آبائي؛ في الجنة أو النار. ثم خلف بين يدي المنصور تلميذه عيسى، ومضى إلى جنديسابور ومعه عشرة آلاف دينار وخادم، فوصلها حياً[1].

وحل عيسى محل جورجيس. فأخذ يبسط يده في التشاور والأذية، خاصة على الأساقفة والمطارنة، ومطالبتهم بالرشى وأخذ أموالهم. وكان فيه شرارة وطمع فلما خرج المنصور في بعض سفراته ووصل إلى قرب (نصيبين) كتب عيسى إلى مطران نصيبين يتهدده ويتوعده إن منع عنه ما التمسه. وكان عيسى قد التمس أن ينفذ له من آلات البيعة أشياء جليلة ثمينة لها قدر، وكتب في كتابه: أليس تعلم أن أمر الملك في يدي، إن أردت أمرضته، وإن أردت شفيته. فاحتال المطران في التوسل إلى الربيع وشرح له صورة الحال وأقرأه الكتاب، فأوصله الربيع إلى الخليفة، فأمر المنصور بأخذ جميع ما يملكه عيسى، وتأديبه، ونفيه، ففعل به ذلك[2].

ثم إن المنصور سأل عن جورجيس ليؤتى به. فامتنع لضعفه وأنفذ إلى الخليفة تلميذه إبراهيم. فقربه المنصور وأكرمه وخلع عليه، ووهب له مالا، واستخلصه لخدمته. ولم يزل في الخدمة إلى أن مات المنصور[3].

(١) عيون الأنباء جـ ١ ص ١٢٤، وتاريخ الحكماء ص ١٦٠.
(٢) تاريخ الحكماء ص ٢٤٨.
(٣) عيون الأنباء جـ ١ ص ١٢٥

وكان أبو قريش طبيب المهدي. وكان يعرف بعيسى الصيدلاني، ولم يكن طبيباً، وإنما كان صيدلانيا ضعيف الحال جداً، فتشكت حظية للمهدي ذات يوم، وتقدمت إلى جاريتها بأن تخرج القارورة إلى طبيب غريب لا يعرفها. وكان أبو قريش بالقرب من قصر المهدي. فلما وقع نظر الجارية عليه أرته القارورة، فقال لها: لمن هذا الماء؟ فقالت: لامرأة ضعيفة. فقال: بل لملكة عظيمة الشأن، وهي حبلى بملك! وكان هذا القول منه على سبيل الرزق. فانصرفت الجارية من عنده وأخبرت الحظية بما سمعته منه، ففرحت فرحاً شديداً؛ وقالت ينبغي أن تمضي علامة على دكانه حتى إذا صح قوله اتخذناه طبيبا لنا. وبعد مدة ظهر الحبل، وفرح به المهدي فرحاً شديداً؛ فأنفذت الحظية إلى أبي قريش خلعتين فاخرتين وثلاثمائة دينار. وقالت: استعن بهذا على أمرك، فإن صح ما قلته استصحبناك. فعجب أبو قريش من ذلك وقال: هذا من عند الله، لأنني ما قلته للجارية إلا وقد كان هاجساً من غير أصل. ولما ولدت الحظية؛ وهي الخيزران، موسى الهادي، سر المهدي به سروراً عظيماً. وحدثته جاريته بالحديث، فاستدعى أبا قريش وخاطبه، فلم يجد عنده علماً بالصناعة، إلا شيئاً يسيراً من علم الصيدلة. إلا أنه اتخذه طبيباً لما جرى منه واستخصه وأكرمه غاية الإكرام وحظي عنده، وخاصة عندما علم أنه عنين[1].

***

واستبقاه الهادي، وظل مكرماً عنده. وعندما مرض الهادي جمع الأطباء، وكان فيهم أبو قريش، فقال لهم: أنتم تأكلون أموالي وجوائزي وفي وقت الشدة تتغافلون عني. فقال له أبو قريش: علينا الاجتهاد، والله يهب السلامة[2].

ثم استدعى له بختيشوع بن جورجيس من جنديسابور، فداواه وشفي. ثم كادت له الخيزران فأعاده المهدي إلى جنديسابور[3].

وكان ممن حظي عند الهادي الطيفوري المتطبب، وكان

(١) عيون الأنباء جـ ١ ص ١٥٣.
(٢) تاريخ الحكماء ص ٤٣١
(٣) المصدر السابق ص ١٠١.

حاذقاً ، وكان متطببه ومربيه في رضاعه وطفولته وكبره . وهو جد إسرائيل بن زكريا الطيفوري طبيب الفتح بن خاقان(١) .

☆☆☆

أما الرشيد ، فقد أعاد بختيشوع ؛ فقد مرض سنة ١٧١ هـ من صداع لحقه ، فقال ليحيى بن خالد : هؤلاء الأطباء ليسوا يفهمون شيئاً . فقال له يحيى : لما مرض أخوك الهادي ، أرسلوا إلى جنديسابور ، فأحضروا رجلا يعرف ببختيشوع . فقال الرشيد : كيف أعاده وتركه ؟ قال لما رأى والدتك ، والطبيب عيسى أبا قريش يحسدانه ، أذن له بالانصراف إلى بلده ، فأمر الرشيد بحمله . فورد بختيشوع ودخل على الرشيد فداواه . وأكرمه الرشيد وخلع عليه خلعة سنية . ووهب له مالاً وافراً ، وقال له : تكون رئيس الأطباء ، ولك يسمعون ويطيعون(٢) .

ثم حل جبرئيل بن بختيشوع عند الرشيد محل أبيه . وقد خص بادئ أمره بجعفر بن يحيى ؛ وذلك أن جعفراً هذا مرض ، فتقدم الرشيد إلى بختيشوع بن جورجيس بأن يخدمه . وكان من أدب الطبيب اذا كان خاصاً بالملك أن لا يخدم أحداً من أصحابه إلا بأمره ، ولما أفاق جعفر من مرضه قال لبختيشوع : أريد أن تختار لي طبيباً ماهراً أكرمه وأحسن إليه . قال له بختيشوع . لست أعرف في هؤلاء أحذق من ابني جبرئيل . وهو من أمهر مَنْ في الصناعة . فقال : أحضرنيه . فلما أحضره شكا إليه مرضاً كان يخفيه ، فدبره في مدة ثلاثة أيام وبرأ . فأحبه جعفر مثل نفسه وصيره رئيس الأطباء ، وكان لا يصبر عنه ساعة ، ومعه يأكل ويشرب(٣) .

وقد اتصل جبرئيل بالرشيد بسبب حظية له . فقد كان للرشيد حظية فُتن بها ، تمطت ذات يوم ورفعت يدها ، فبقيت منبسطة لا يمكنها ردها . والأطباء يعالجونها بالتمريخ والأدهان فلا ينفع ذلك شيئاً . فقال الرشيد لجعفر بن يحيى : قد بقيت هذه الصبية بعلتها . قال له جعفر : لي طبيب ماهر ، وهو ابن بختيشوع تدعوه وتخاطبه في معنى هذا المرض ، فلعل عنده حيلة في علاجه . فأمر بإحضاره . ولما حضر قال له الرشيد : ما اسمك ؟ قال : جبرئيل . قال : أي شيء تعرف من الطب ؟ قال : أبرّد الحار ، وأسخن البارد ، وأرطب اليابس ، وأجفف الرطب . فضحك الرشيد وسر . وشرح له حال الصبية . فقال جبرئيل : إن لم يسخط علي أمير المؤمنين فلها عندي حيلة . قال له الرشيد : ما هي ؟ قال : تخرج الجارية إلى هنا بحضرة الجمع حتى أعمل ما أريده ، وتمهل علي ولا تعجل بالسخط ، فأمر الرشيد بإحضار الجارية ، فخرجت ، وحين رآها جبرئيل أسرع إليها ونكس رأسه ، وأمسك ذيلها كأنه يريد أن يكشفها ، فانزعجت الجارية ، ومن شدة الحياء والانزعاج استرسلت أعضاؤها ، وبسطت يدها إلى أسفل وأمسكت ذيلها . فقال جبرئيل : قد برأت يا أمير المؤمنين . فقال الرشيد للجارية : ابسطي يدك يمنة ويسرة ، ففعلت ، فعجب الرشيد وكل من كان حاضراً ، وأمر لجبرئيل في الوقت بخمسمائة ألف درهم ، وأحبه ، وجعله رئيساً على جميع الأطباء(١) .

وكان محله يقوى ويعلو ، حتى أن الرشيد قال لأصحابه : كل من كانت له حاجة إلى فليخاطب فيها جبرئيل ، لأني أفعل كل ما يسألنيه ويطلبه مني . فكان القواد يقصدونه في كل أمورهم . ومنذ يوم خدم الرشيد إلى أن انقضت خمس عشرة سنة لم يمرض الرشيد ، فحظى عنده حظوة كبرى(٢) .

ونستطيع أن نعلم حال هذا الطبيب وأبوه وجده من كلمة له قالها لإبراهيم بن المهدي : « إن عيش جبرئيل ، وبختيشوع أبيه ، وجورجيس جده ، لم يكن من الخلفاء ، وإنما كان من الخلفاء ، وولاة العهد ، وإخوة الخلفاء ، وعمومتها ، وقراباتها ، ووجوه مواليها ، وقوادها . ولي أبوان خدما الخلفاء ، وأفضلوا عليهما ، وأفضل عليهما غيرهم ممن هو دونهم . وقد أفضل علي الخلفاء ، ورفعوني من حد الطب إلى المباشرة والمسامرة ، وليس لأمير المؤمنين أخ ولا قرابة ولا قائد ولا عامل إلا وهو يداريني إن لم يكن مائلا بمحبته وشاكراً لي ، على علاج عالجته به ، ومحضر جميل حضرته له ، ووصفته وصفاً حسناً عند الخليفة فنفعه(٣) » .

(له بقية)

صلاح الدين المنجد

(١) عيون الأنباء جـ ١ صـ ١٠٣ .
(٢) تاريخ الحكما صـ ١٠١ ، وعيون الأنباء جـ ١ صـ ١٢٦ .
(٣) عيون الأنباء جـ ١ صـ ١٢٧ .

(١) تاريخ الحكماء صـ ١٣٤ .
(٢) تاريخ الحكماء صـ ١٣٠ .
(٣) المصدر السابق صـ ١٣٩ .

في ركب الوحدة العربية :

الأدب في فلسطين ...

للأستاذ محمد سليم الرشدان

— ٤ —

مع الأدباء العلميين

تحدثت في آخر فصل وقفت عنده (من هذا البحث [١]) عن عالم فلسطين الرياضي الأستاذ قدري حافظ طوقان ، ولم أبلغ نهاية التعريف بآثاره ، لضيق في المجال الذي أعددته (يومذاك) ولذا فإنني أقف اليوم بالقارىء الكريم (وقفة يسيرة) ، عند أثر قيم من آثاره ، وهو كتابه « تراث العرب العلمي » في الرياضيات والفلك . ولعلنا نقدر مبلغ عنايته بإخراجه ، حين نسمعه يقول في مقدمته :

« شغلت نفسي بهذا الكتاب أكثر من عشر سنين ، وهو خلاصة بحث مرهق ودراسات مضنية ، اعتمدت فيها على مظان عديدة قديمة وحديثة ، عربية وافرنجية ، ومخطوطات نفيسة حصلت عليها بمساعدة بعض الأصدقاء ، من القاهرة وطنجة وتطوان والقدس ... » .

وقد جعل الأستاذ (طوقان) كتابه في قسمين ، الأول منهما يحتوي على سبعة فصول ؛ ستة منها تبحث في الرياضيات قبل الإسلام ، ومآثر العرب في الحساب والجبر ، والهندسة والمثلثات والفلك . والسابع يتناول الرياضيات في (الشعر العربي) وهو فصل طريف لعله الأول من نوعه ، أحصى فيه ماقاله شعراء العربية في الجاهلية والإسلام من الشعر الرياضي . فأورد شعر « زرقاء اليمامة » في سرب من الحمام ، أبصرته فأحصته عدداً فقالت :

ليت الحمام ليه ونصفه قديه
إلى حمامتيه صار الحمام ميه

وهي مسألة حسابية معقدة (كما ترى) ، بسطها (حذام معجزة الدهر في قوة الأبصار) بقالب شعري لطيف .

كما أورد في ذلك الفصل أيضاً ، قول الشاعر الرياضي الرح الإمام أبي القاسم البديع الأسطر لابي حين يتغزل فيقول :

وذي (غيئة) يزهو بخال (مهندس)
أموت به في كل حين وأبعث
(محيط) بأوصاف الملاحة وجهه
كأن به (اقليدس) يتحدث
فعارضه (خط استواء) وخاله
به (نقطة) والخد (شكل مثلث)

ولقد استلفت نظري (هنالك) أرجوزة « ابن الياسمين » التي جمع فيها بين الأدب والرياضيات ، فعرف علم الحساب والجبر وشرحهما ومثل عليهما شعراً . ومن ذلك قوله في تعريف الجبر :

على ثلاثة يدور الجبر : (المال) و (الأعداد) ثم (الجذر)
فـ (المال) : كل عدد مربع و (جذره) : واحد تلك الأضلع
و (العدد المطلق) : مالم ينسب للمال أو للجذر . فافهم تصب
و (الجذر) و (الشيء) بمعنى واحد كالقول في لفظ أب ووالد ...

ثم يمثل عليه في (حل معادلة) كان قد أسلف ذكرها في أقسام المعادلات فيقول :

فـ (ربع) المال من (الأشياء) واحمل على (الأعداد) باعتناء
وخذ — من الذي تناهى — (جذره)
ثم انقص (التنصيف [١]) تفهم سره

ويحصي (الأستاذ طوقان) بعد ذلك شعراً ماأعذبه وأطلّه ، كثيراً ماتمثلت به لطلابي (في دروس البلاغة) ، دون أن أتنبه لما فيه من البراعة في استخدام الألفاظ ، مما استنبطه الأستاذ من معانيها في الرياضيات والفلك .

وأما القسم الثاني من الكتاب فيحتوي تسعة فصول ،

---

(١) نشر ذلك الفصل في العدد ٦٨٩ من الرسالة الزاهرة . ولعل كلمتي (على هامش الأدب في فلسطين) رداً تقبله المربية الفاضلة الأديبة (ليلى عبد السلام من المنصورة) ، على كلمتها التي تكرمت بتوجيهها إلى وإلى آخرين في العدد ٦٩٦ من الرسالة أيضاً .

(١) تحل هذه المعادلة (حسب الطرق المعروفة في كتب الجبر) على الصورة الآتية :

$سه^{٢} + ١٠ سه = ٧٥$ ، $سه^{٢} + ١٠ سه + (\frac{١٠}{٢})^{٢} = ٧٥ + (\frac{١٠}{٢})^{٢}$ ، أى أن $سه^{٢} + ١ سه + ٢٥ = ١٠٠$ ، أى أن $(سه + ٥)^{٢} = ١٠٠ \therefore سه + ٥ = ١٠ \therefore سه = ٥$

يسرد فيها سير العظماء من الرياضيين والفلكيين ، وانتاجهم العلمي ، ومؤلفاتهم وانتقالها إلى أوربة ، وأثرها في تقدم العلوم فيما بعد .

وتتجلى في الأستاذ روح العالم العامل بعلمه ، حين يقول لك : إنه توخى في هذا الكتاب « الإخلاص للحق والحقيقة وإنصاف حضارة العرب ، والكشف عن أمجادهم الفكرية في الرياضيات والفلك ... » .

وما دمت في صدد العلم (حين ينسلك في نطاق الأدب) ، فلا بأس من أن أذكر (علماء متأدبين) آخرين ساروا في هذا السبيل ، فقطعوا فيه شوطاً محموداً ، والفوا فيه ما لا يتيسر من غير جهد ، ولا يبلغ بعد هذا الشأو من الجودة إلا نضوج مكتمل .

وبين يدي (أشتات أنباء) عن ثلاثة من هؤلاء (العلماء) وكلهم مارس صناعة التعليم عمراً من عمره ، وربما كان لذلك أثر بين في بعض انتاجهم ، وبعض وجهات نظرهم . وأول هؤلاء الثلاثة :

الأستاذ محمد أديب العامري . وقد كان إلى أمد (ليس بعيداً) مديراً لكلية السلط ، وكانت له في ذلك العمل تجارب كثيرة ، فألف (بوحي منها) كتباً لتدريس العلوم الطبيعية ، في صفوف مختلفة من مراحل التعليم ، طبع بعضاً منها والبعض الآخر في أثره

وتتألف هذه السلسلة من قسمين ، الأول منها (مبادئ حفظ الصحة) للمراحل الابتدائية المتوسطة ، والثاني (مبادئ العلوم) وينقسم إلى أجزاء تزامل الطالب حتى تبلغ به المرحلة الثانوية . وترتكز هذه الكتب (في سائر أجزائها) ، على أسلوب محدث وطريقة مبتكرة ، يراعى فيها الانتقال من التدرج في الوصف ، إلى التعريف والتحديد فالاستقراء والاستنباط .

كما الف كتابه (فصائل النباتات الشهيرة) للمراحل الثانوية العالية ، وصرف في إعداده مجهود (أعوام ثلاثة) في البحث والدرس ، والاقتباس عن أشكال الطبيعة مباشرة ، وهذا الكتاب وحيد في أسلوبه وطريقة تنسيقه : يشتمل على ما يفتقر اليه الطالب العربي من أركان هذا العلم ، وسائر تفصيلاته .

كما ترجم بوحي من ذلك العمل (أيضاً) ، كتاب (الكيمياء العملية) للدكتور « كاوز Close » رئيس دائرة الكيمياء في الجامعة الأمريكية . فأكمل بذلك جانباً كبيراً من النقص الذي يفتقر اليه الطالب العربي في هذا الباب ..

وله فيما عدا ذلك إنتاج آخر ، يدفعه اليه ميله (السياسي الاجتماعي) ، وهذا الميل متأصل في نفسه ـ رغم تخصصه الجامد في دراسة علم الحياة ـ وطالما استحوذ عليه ، فاذا هو منسرب في مسالكه ، منساق إلى أهدافه ، متطلع إلى مراميه ...

وهو إبان هذا الاستسلام المطلق ، يكتب في (القصة) آناً ، ويكتب في (فلسفة الحياة) آناً آخر . وحين أعرفه لك في الحال الأول ، أقفك عند كتابه « شعاع النور » ؛ لكي تستعرض معي (متمهلا) هذه الفقرة من مقدمته إذ يقول فيها :

« ... إن هنالك شعاعاً من النور ينتظم سيرة الحياة ، وهذا الشعاع ذاته هو الذي يومض في نفوس هؤلاء الناس ، الذين أقدمهم اليك وأسلمهم بك ، ولولا هذا الوميض الذي يستمد نوره وحرارته من طبيعة الحياة ، الحياة الخالدة السامية ؛ لما كان سبيل هؤلاء الناس إلا أن يتلاشوا في العدم ، ولكنهم لا يتلاشون .. »

وأما قصص هؤلاء الناس (الذين يصلهم بك) فانها ـ يأخي القارىء ـ ليست من هذا الطراز الذي الفنا قراءته وتكراره ، ولكنها ضرب جديد في القصص ، (جديد إلى أبعد مدى خيالك من تصوير للجديد) ، ماراًيت من مثلها فأقرب بها اليك تشبيها ، ولكنني أصفها . وأين الخَبَرُ من الخُبْر ؟!

إنك لو وقفت حيال هذه القصص ، لألفيتها قائمة على التحليل النفسي للطبيعة البشرية ، وعلى تصوير الانفعالات المستندة إلى العوامل الموروثة ؛ التي تمثل نوازع الإنسانية العميقة تمثيلا صادقاً . وهو في خلال ذلك كله يستهدف الإصلاح الاجتماعي ، شاملا من جميع نواحيه .

وله في هذا الباب قصة أخرى عنوانها (سليم افندي) ، وهي تحليل شامل لما يعترض النفس الإنسانية من اضطراب وقلق ، ولما يؤدي اليه مركب النقص من تصرفات وأوضاع ؛ والقصة في إجمالها وتفصيلها تنحصر في دائرة القصة السالفة من جميع نواحيها .

وحين أعرف لك الأستاذ العامري في الحال الثاني (أي حين يكتب في فلسفة الحياة) ، أقفك كذلك عند كتابه (نحو الحياة) . وهذا الكتاب سرد من التفاؤل المطلق ، مرتكز على المحاكمة والاستقراء ، وقائم على منطق التدرج . فهو يرى فيه أن طبيعة الحياة إيجابية ، وأنها تتقدم من تلقاء نفسها باطراد إلى الأمام ، وأن مستقبل البشرية إلى خير ، على الرغم مما يبدو في

فى جوها — وما بدا إلى الآن — من أكفهرار واضطراب . واليك نمطاً يبين لك الأسلوب الذى يلتزمه فى مثل هذا الحال ، وذلك حين يقول :

« ... طبيعة الحياة نفسها تأبى الردة ، الإنسان والحيوان والنبات ، هذه الأحياء كلها تبحث عن الجمال والقوة . والحياة تنتج باستمرار أجيالا أقوى وأجمل ، فلو ركب فى الناس ذوق (من مثل حب القبيح) ، ولو كان (الظلم) هو مشتهاه الطبيعة البشرية فى قرارتها ؛ لفكرت أن الحياة يمكن أن تتأخر !!.

الناس اليوم أطول أعماراً من آبائهم الأولين ، والناس اليوم أكثر إحساساً بالكرامة . وأرفع مستوى فى العيش مما كانوا من قبل . وتوزيع الثروة (وإن يكن اليوم منطوياً على إجحاف) أكثر انتشاراً منه فيما مضى من قريب . والمظلوم اليوم أجرأ وأرفع صوتاً فى المطالبة بحق . وحالتنا الحاضرة — فى بعض البلاد الراقية — خير من بعض سور (المدينة الفاضلة) كما رآها بعض المفكرين .

فإلى أية غاية ترى هذه النزعات الطاهرة ، الخالصة الصادقة التى لا تكبح ؟!... »

وما يزال بين يدى الأستاذ مواضيع مختلفة ، ينصرف لمعالجتها والتفرغ لدرسها ، على رغم المسئولية التى يضطلع بحملها فى (دار الإذاعة الفلسطينية) فى القدس ؛ ولقد كتب فى الرسالة الغراء وغيرها ، دراسات كثيرة ، فى العلوم والآداب والأبحاث النفسية ، التى يميل فيها إلى المذهب التحليلى على طريقة (ادلر) .

وله مجموعة مقالات — مما أذاع به أو ألقاه فى الأندية كلها تحوم حول الأهداف التى أسلفت الإشارة إليها . وهى تقع فى كتاب ضخم جاهز للطبع .

وأما الباحثان الآخران ، فقد ألف أحدهما بوحى (من عمله التدريسى أيضاً) كتباً علمية لمراحل الدراسة الثانوية ، ثم انطلق على سجيته بعد ذلك فإذا هو يكتب فى الأدب حيناً ، فيؤلف فيه أشتاتاً من الأقاصيص ، وألواناً من الدراسات . يعالج فيها جميعاً كثيراً من المشاكل الإنسانية المعقدة ، والأدواء الاجتماعية المستعصية . ثم إذا هو (حيناً آخر) يكتب فى الفلسفة العلمية ويحلق فى أجوائها ، فينتهى من ذلك بمجموعة من الكتب القيمة ، كل واحد منها يتوجه فى سبيل ، وينتهى إلى غاية ، ثم تأتلف أخيراً لتتحد فى ثناياها صورة مشرقة من صور (الأدب العلمى) .

وأما الثانى فقد ألف كذلك (بوحى من عمله التدريسى) ، ولكنه خالف صاحبه فى أنه ، نخرج من محيط المدرسة إلى محيط الجمهور . وهو محيط أشمل وأعم . سرعان ما يثمر التعليم فيه ويؤتى أكله . ثم إذا هو يصنع له من العلم (الجاف المعقد) مادة هينة لينة ، رقيقة الحواشى مهلهلة الأطراف ؛ هى على حد قول الإمام الثعالبى :

« يكاد الهواء يسرقها لطفاً ؛ والهوى يعشقها ظرفاً .. »

ويكون من هذه المادة كتاباً لطيف الحجم عظيم النفع ، فيكاد يخرج إلى (دنيا الجمهور) ، حتى تتخاطفه الأيدى ، وينتشر فى كل مكان ، ويقبل الناس عليه أيما إقبال .

ويحس هذا الباحث مقدار نجاحه ، فيمضى فى طريقه قدماً ، إذ هو بعيد الفكرة من غير ما تريث ، ويفاجىء الناس بثانى كتبه ، ليظفر بما يترقبه من نجاح ، بعد أن مهد له السبيل إلى تلك الغاية ذلك الكتاب الذى سبقه . ووقف المؤلف بعدها يستعد لإخراج دروس جديدة ، يلحقها بذينك ، ليؤدى رسالته على الوجه الذى ارتضاه .

وأما هذان الباحثان فأولهما : الأستاذ عبد الله الريماوى ، وثانيهما الأستاذ على شمث . وسوف أحدثك عنهما مفصلا .

القدس : **محمد سليم الرشدان**

« أستاذ العربية وآدابها فى كليتى التجارة والأمة »

الأدب في سير أعلامه :

ملتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال . .]

للأستاذ محمود الخفيف

– ٣٥ –

الفردوس المفقود : موضوع القصيدة الكبرى

ويفتتح الكتاب الثالث بمناجاة النور مناجاة تعد من أروع ما في القصيدة من مواضع الجمال ، وقد أراد الشاعر بهذه الفاتحة أن يمهد للانتقال من الجحيم والعماء إلى الجنة وما فيها من زينة وبهجة .

ثم يتحدث الشاعر عن الله وقد استوى على العرش وعن يمينه ابنه ، وقد رأى الشيطان طائراً صوب الدنيا وقد تم خلقها قريباً ، و يُرى الله ابنه هذا الشيطان في رحلته وينبئه بما سيكون من نجاحه في إضلال بني آدم وغوايتهم . ويبرئ الله عدالته وحكمته من كل مظنة أو لبس فقد خلق الإنسان حراً قادراً تمام القدرة على أن يقاوم مضله الموسوس له ؛ ومع ذلك فأن الله يكشف عما يشاء لعباده من هدى وسعادة وذلك لأن الإنسان لم يعص كالشيطان بدافع من الشر ، وإنما عصى بدافع من الغواية التي لاحقه بها الشيطان حتى أذله وأخرجه مما كان فيه .

ويرفع ابن الله شكرانه لأبيه على ما أظهره عليه من نية ومشيئة في إسعاد الانسان ؛ ولكن الله يعود فيعلن أن رحمته سوف لا تنال الإنسان إلا على أساس ما ينبغي للعدالة الإلهية من كمال ؛ فقد أساء الإنسان إلى جلال ربه بطموحه إلى الألوهية واقتطافه الثمرة المحرمة ، ولذلك قدر عليه أن يموت ولابد أن يدركه وذريته الموت ، وما له من خلود إلا أن يوجد من هو كفء لأن يسأل عن خطيئته ويكفرعنها بما يحتمل من ألم وعقاب ؛ ويتقدم ابن الله طائعاً مختاراً لكي يكون هو الفداء للانسان ، ويتقبل الأب منه هذا الذي يعرضه . ويأمر به فيتجسد ويتمثل بشراً سوياً ويرفعه الله مكاناً علياً ؛ فهو فوق كافة الأسماء في الجنة وفي الأرض ويدعو الله الملائكة فيأمرهم أن يسجدوا له ويتعبدوا ، فيفعلون طائعين ويسبحون بحمد الأب والابن وتمجيدهما مرتلين نشيد الحمد جميعاً في نغمة واحدة ترددها أوتار قيثاراتهم .

وفي تلك الأثناء يسقط الشيطان حتى يقترب من كوكب خارجي قصي عن هذه الكرة التي هي الدنيا ، كوكب يفصل بين الأرض وبين العماء والظلمة الممتدة إلى الجحيم من تحته ؛ وهناك يجد بعد تجوله مكاناً سوف يكون فيما بعد جنة المغفلين ويصف الشاعر هنا من سوف يسكنون هذه الجنة فثمة من مات من الأطفال قبل تعميدهم وثمة البلهاء والبسطاء والذين ماتوا قبل أن ينزل الدين .

ويتابع الشيطان طيرانه صاعداً حتى يرى على بعد باب الجنة ، وينظر الشيطان فاذا هو بالغ الروعة والبهاء والزينة ، ليس كمثله بناء فيما سيخلق الانسان في الأرض ، فهو معقود من الذهب والماس ويرتقي الداخل فيه صعدا على سلم من الذهب الوهاج ، وحوله أنهار من اللؤلؤ المذاب ؛ ويستمر الشيطان محلقاً حتى يأتي كوكب الشمس ويجد عنده حارسه أُرِيل ، فيتنكر ويظهر في صورة ملك من الملائكة الذين هم دون أريل في المرتبة إذ أن أريل من الملائكة المقربين ، ويتوسل إلى أريل أن يدله على ذلك الانسان الذي خلقه الله حديثاً والذي سوف يهبه دنيا جديدة واسعة يعيش فيها وينعم بها . ويقول الشيطان في ضراعة إنه ما قطع هذه الرحلة الطويلة منفرداً إلا ليطلع على بديع ما خلق الله مما سمع عنه هو ورهطه من الملائكة ، وذلك لكي يزداد تمجيداً لله وتسبيحاً بحمده ؛ ويستطيع الشيطان أن يخدع أريل نفسه فيشير أريل إلى مكان ما ويقول للشيطان انظر فهذه هي الجنة حيث يقيم آدم وهذه البقعة الداكنة التي ترى هي عشه ، وينطلق الشيطان بكل ما في وسعه من سرعة فما يزال طائراً حتى يبلغ حيث أراه أريل .

ويبدأ الكتاب الرابع والجنة على مرأى من الشيطان ، وقد أصبح على مقربة من المكان الذي يسكن فيه آدم وزوجه ، والذي سوف يحاول فيه محاولاته الجريئة التي عقد العزم على أن يضطلع بها وحده ضد الله وضد الإنسان ؛ ولكنه قبل أن يقدم

على عمله أخذت تساوره وهو على مقربة من الجنة هواجس من الشك واليأس ، كما أخذت تهجس فى نفسه عواطف الخوف والحسد والبغض ؛ وبعد لأى ينطلق من عقال هذه الهواجس جميعاً ويصمم على الشر الذى جاء من أجله ، ويسرع صوب الجنة حتى يبلغها .

وبعد أن يصف الشاعر وصفاً ممتعاً رائعاً منظر الجنة الخضراء ويتحدث عن أشجارها وثمارها ويبين أين تنبت شجرة الحياة وأين تنبت شجرة المعرفة ، يرينا كيف يتسلل الشيطان فيدخل الجنة واثباً فوق أسوارها .

وفى الجنة يحيل الشيطان نفسه إلى ثعبان ويزحف حتى يستقر فوق شجرة الحياة وهى أعلى الأشجار ، ويدور بعينيه من فوق الشجرة ينظر ماذا يرى حوله . وهنا يتحدث الشاعر عما يرى الشيطان فيأتى بوصف آخر للجنة فى داخلها ويبلغ فى ذلك من الروعة والقوة ما لا يتعلق بمثله وهم شاعر غيره .

وتقع عينا الشيطان على آدم وحواء فيرى أول ذكر وأول أنثى من البشر ، ويتفكر الشيطان فيما هو بسبيله من إغواء ، ويقارن بين ما هما فيه من نعيم وبين ما سوف يدفعهما إليه من شقاء ؛ ويهبط من فوق الشجرة فيتشكل بأشكال ما تقع عليه عيناه من حيوانات حتى يقترب من آدم وحواء فيسترق السمع وهما يتحاوران ويتحدثان ؛ ويعلم منهما أن الله نهاهما عن شجرة المعرفة ، فإن أكلا منها أخرجهما ربهما من الجنة وكتب عليهما وعلى ذريتهما الموت . ويقع الشيطان هنا على بغيته فقد وجد سبيله إلى إضلالهما فما عليه إلا أن يغويهما بالثمرة المحرمة حتى يأكلا منها فإذا هما من الهالكين ؛ ثم يدعهما الشيطان ريثما يعلم من أمرهما أكثر مما علم بما سوف يعده لذلك من وسائل .

وفى ذلك الوقت ينزل أرييل على شعاع من أشعة الشمس ، فيحذر جبريل وهو حارس باب الجنة وينبئه أن روحا خبيثا صاعدا من السماء السفلى قد مر وقت الظهيرة بكوكبه متنكرا فى شكل ملك كريم ، وأنه اتجه بعد ذلك صوب الجنة . وقد فطن إلى ذلك بعد أن تدبر فى الأمر ؛ ويجيبه جبريل بأنه سوف يبحث عنه فيأخذه قبل أن ينبلج الصبح .

وينزل الليل فيميل آدم وحواء إلى الراحة ويتحاوران فى ذلك ؛ ويأويان إلى عشهما فى الجنة ويصليان لله صلاتهما ؛ ويصف الشاعر هذا العش وهذه الصلاة وصفا رقيقا جميلا

ويمضى جبريل فى الجنة على رأس فريق من الملائكة هم من عسسها ، ويضع على عش آدم ملكين قويين غليظين مخافة أن يدخل بالأذى ذلك الروح الخبيث أثناء نومهما ؛ ويبصر الملكان فإذا بذلك الروح يوسوس لحواء فى أذنها وهى نائمة فتحلم بالذى يقول ؛ ويأخذه الملكان فيجرانه جرا إلى جبريل ، ويسأله جبريل عن فعلته ، فيجيب مستكبرا مستهزئاً ، ويتأهب للعنف والمقاومة ، ولكنه لا يلبث أن يجد نفسه ، وقد منع ذلك منعا بقوة من السماء فيطير ويهرب من الجنة .

ويتنفس الصبح فتقص حواء على آدم ما كان من حلمها الذى شغل نفسها ؛ وبهذا يفتتح الشاعر الكتاب الخامس ؛ ويكره آدم هذا الحلم وينفر منه ولكنه يعمل على تهدئتها ويجتهد أن يصرف عنها ما يشغلها من وساوس .

ويقبل آدم وحواء على عملهما اليومى ويقرآن صلاتهما عند باب عشهما وينشدان نشيدهما بسبحان بحمد ربهما ؛ ولكيلا يكون للإنسان على الله حجة يرسل الله روفائيل ليذكرهما بطاعته وامتثال ما نهاهما عنه ، ولينذرهما أن الشيطان لهما عدو وأنه على مقربة منهما ، وليبين لهما لم كان الشيطان لهما عدوا مبينا إلى غير ذلك مما يجب أن يعلمه آدم من علم ينفعه .

ويهبط روفائيل فيدخل الجنة ، ويصف الشاعر ظهوره فى ربوعها ؛ وتأخذه عينا آدم من بعد وهو جالس بباب عشه ، فينبعث للقائه ويسلم عليه ويدعوه إلى مقره ، ويقدم له أطيب ما تختاره حواء من فاكهة الجنة ؛ ويتحاور آدم وروفائيل حول الخوان ؛ وينبئه روفائيل بما جاء من أجله ويحذره من الشيطان ويذكر له ما يضمره له ولزوجه من العداوة والبغضاء ؛ ويقص عليه استجابة لطلبه من هو هذا العدو وكيف أصبح لهما عدوا ، ولماذا ينطوى على العداوة قلبه مبتدئا بما كان من تمرده فى السماء على خالقه وما أعقب ذلك من غضب الله عليه وإلقائه فى الجحيم .

وهنا يصف الشاعر على لسان روفائيل تلك المعركة التى أدارها الشيطان الأكبر على رأس قبيله ، والتى أجمل الشاعر الإشارة إليها فى مفتتح القصيدة

ويستطرد روفائيل فى أول الكتاب السادس ليتم كيف دارت المعركة فيصف كيف أرسل ميكال وجبريل ليحاربا الشيطان وهو ثائر متمرد على رأس جنده ، وكيف وقف القتال فى اليوم الأول عند نزول الليل ، وكيف جمع الشيطان مجلساً من أعوانه الثائرين فابتكروا أسلحة أوقعت ميكال وجنده فى شىء من الحيرة والاضطراب ، وكيف استحر القتال فاقتلع ميكال وجمعه الجبال وقذفوا بها الشيطان وأعوانه فزلزلوا زلزالا شديداً وأدخلوا على قلوبهم الرعب والدهشة فى اليوم الثانى ؛ وكيف أصر الشيطان على الرغم من ذلك ، فصاول وتطاول ولج فى شره وعناده حتى أرسل الله فى اليوم الثالث ابنه المسيح الذى احتفظ له بالنصر ومجده وفخاره ؛ وكيف سوى المسيح الملائكة صفاً وفى روحه قوة أبيه ، وقذف فى صفوف أعدائه بالرعد القاصف ، ووثب فى مركبته فدفعهم دفعاً إلى أسوار السماء ؛ وكيف فتحت أبوابها . فألقى العصاة منها جماعات قد امتلأت رعباً وهوت إلى قرار سحيق أعد لها فى الظلام والجحيم نكالا من الله ؛ وكيف عاد المسيح بعد ذلك ظافراً إلى أبيه .

هذا هو موضوع القصيدة الكبرى أتيت على سرده كى أستطيع بعد ذلك أن أتكلم عن فلسفة القصيدة ثم عن الشعر فيها موضحاً ماذا يرمى إليه الشاعر فى هذا الموضوع مفصلا ما أجملت من حوادث القصيدة ومواضع الوصف فيها مبيناً على قدر ما يسعه جهدى مبلغ ملتن فيها من الشاعرية مستعرضاً ما أثبته نقدة الأدب الأعلام من آراء، وما عقدوه من موازنة بين هذه القصيدة وبين مثيلاتها من الملاحم الطويلة .

فلسفة القصيدة الكبرى :

تدور هذه القصيدة على فكرتين أساسيتين : أولاهما هبوط الملائكة من السماء إلى الجحيم ؛ وثانيتهما هبوط آدم أو الإنسان من الجنة إلى الأرض ؛ والغرض من هذه القصيدة كما جاء فى مقدمتها على لسان الشاعر هو أن يبرر أحكام الله ومشيئته تلقاء الإنسان .

وقبل أن نبسط القول فى فلسفة القصيدة يجدر بنا أن نشير إلى أمر كان له أهميته فى خلق الكثير من آراء الشاعر ، وكان له أثره فى توجيه ذهنه اتجاهاً خاصاً بحيث أثر ذلك فى فلسفة القصيدة على العموم ، وذلك أن ملتن لم يجعل من القصيدة وسيلة لعرض آرائه الدينية مجردة فحسب كما قد يتبادر إلى الذهن بمجرد النظر فى موضوع قصيدته ، وإنما جعل الشاعر بالإضافة إلى ذلك موضوع قصيدته فى أكثر من موضع مجالا للاشارة إلى ما فى نفسه من معان تتصل بحياته الخاصة أو بحياته العامة وحياة قومه من ناحيتيها الاجتماعية والسياسية . وهذا كما ذكرنا جانب من فلسفة القصيدة ، إذا أغفلناه نقصت فى قيمتها كمثل فنى نقصاً كبيراً ، بيد أننا نؤثر أن ندع بيان ذلك حتى نعقد له فصلا خاصاً نكشف فيه عن ملتن وحياته فى الفردوس المفقود ، ولنقصر همنا الآن على ما أراده من الأفكار الدينية .

ولكى نستطيع أن نتبين هذه الأفكار ، يجدر بنا أولا أن ننظر لم اختار الشاعر هذا الموضوع المستمد من الإنجيل ، ونتبين الدوافع التى دفعته إلى ذلك دون غيره .

(يتبع) **الخفيف**

ضيزناباذ

للأستاذ شكري محمود أحمد

موقعها :

أجمعت المصادر القديمة على أن هــذه المدينة « موضع بين الـكوفة والقادسية ، على حافة الطريق على جادة الحج ، وبينها وبين القادسية ميل[1] » كما ذكر ياقوت في معجمه .

والذي يظهر لنا أن صاحب معجم البلدان نقل هذا الـكلام عن كتاب الديارات لأبي الحسن علي بن محمد الشابستي حيث قال في الـكلام على دير سرجس[2] « وهذا الدير كان بطيزناباذ وهو بين الـكوفة والقادسية على ساقة الطريق ، وبينها وبين القادسية ميل[3] » ، وقد نقل هذا الخبر ابن فضل الله العمري في كتابه « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار[4] » .

تقع آثار هذه المدينة اليوم في الشمال الغربي من قضاء أبي صخير في لواء الديوانيــة ، وبينهما تسمة أكيال ، ولا تزال أطلالها ماثلة للعيان يتراوح ارتفاعها بين ١٥ ، ٢٠ متراً ، وعلى جوانب هــذه الأطلال آثار أبنية قديمة العهد تشبه أحجارها أحجار الخورنق . وتمتد هذه الأطلال إلى مسافة كيلين تبتدئ من موضع يسمى اليوم « المعماد[5] » وتنتهي إلى ما يقرب من قصر الخورنق .

ولا تعرف اليوم هذه المدينة « طيزناباذ » باسمها المشهور ، وإنما يطلق عليها الأعراب وسكان تلك المناطق اسم « طُمَيزات » لأنهم استثقلوا هــذا الاسم الأعجمي في وزنه وتركيبه فاستبدلوه بما هو أخف منه على اللسان .

ضبط هذا الاسم :

ضبط ياقوت هذا الاسم بالحرف فقال : طيزناباذ بكسر أوله وسكون ثانيه ثم زاي مفتوحة ثم نون وبعد الفاء باء موحدة وآخره ذال معجمة[1] ، وشكلها ابن خرداذبة والطبري بفتح الطاء، وسكون الياء .

وقد صحفت هذه اللفظة كثيراً كشأن غيرها من الألفاظ الأعجمية فقال بعضهم طيزناباد وقال غيره طرناباد ، أما الأستاذ محمد سعيد العريان مصحح كتاب العقد الفريد فقد ضبطه «طيرناباذ[2]» وذلك عند الـكلام على ضروب العروض شعراً ، حيث وردت هذه اللفظة في بيت من أربعة أبيات في كل بيت منها تصحيف مشين .

معناها :

هذه الـكلمة أعجمية في معناها وتركيبها فهي مكونة من « ضيزن » و « أباذ » ، والضيزن ملك الحضر . قال ياقوت : « وسبب تسميته بهذا الاسم « طيزناباذ » أنه من عمارة الضيزن والد النضيرة بنت الضيزن ملك الحضر ، وأن الفرس ليس في كلامهم الضاد فتكلموا بها بالطاء فغلبت عليها ومعناها « عمارة الضيزن » لأن أباذ العمارة[3] » .

وعلى هذا الرأي أيضاً البلاذري حيث ذكر : كانت طيزناباذ تدعى ضيزناباذ نسبت إلى ضيزن بن معاوية بن عمرو بن العبيد السليحي[4] ، وعلى هذا الرأي أيضاً الـكلبي .

ولما غلب الفرس على هذه المواضع غلبت لغتهم على هذه الأرجاء ، فاستبدلوا الضاد بالطاء لخلو لغتهم منها ، فاشتهرت باسمها الأخير « طيزناباذ » .

تاريخها :

كانت طيزناباذ عاصمة الحضر ، وكان ملكها « ضيزن بن معاوية » معاصراً لسابور ذي الأكتاف ملك الفرس ، وكانت بين الضيزن والروم علاقة صداقة وحلف ، فتقدم سابور ليخضع هذا الذي تحالف مع أعدائه ، وترك رجاله يغيرون على العراق والسواد .

فلما نزل سابور الحضر تحصن الضيزن بالحصن وأقام فيه مدة طويلة ، فحاصره سابور شهراً لا يجد سبيلا إلى اقتحام الحصن ، ولا حيلة لدخوله .

(١) ياقوت معجم البلدان ج ٦ ص ٨٩ .
(٢) يسمى ياقوت هــذا الدير سرجس وبكس نسبة إلى راهبين بنجران ج ٤ ص ١٤٥ .
(٣) الشابستي ورقة ١٠٢ .
(٤) مسالك الأبصار ص ٢٨٤
(٥) المعماد على بعد مرحلة من النجف فيه أبنية قديمة العهد جليلة الوضع .

(١) ياقوت ج ٦ ص ٧٩
(٢) العقد الفريد ج ٦ ص ٣٣٦ .
(٣) ياقوت ، معجم البلدان ج ٦ ص ٧٩ .
(٤) ياقوت ج ٦ ص ٧٩ .

تقول الروايات والقصص إن النضيرة بنت الضيزن نظرت فى أحد الأيام وقد أشرفت على الحضر إلى سابور فهويته وأعجبها جماله ، وكان سابور من أجمل الناس شكلا . وأمدهم قامة ، وأرشقهم جسما ، فبعثت إليه إن ضمن لها الزواج منه هدته إلى فتح الحصن ، فضمن لها ذلك ، فأرسلت إليه أن يذهب إلى نهر الثرثار[1] — وهو نهر فى أعلى الحصن — فيرمى فيه التبن ثم ينظر أين يدخل التبن فيدخل رجاله من ذلك المدخل ، لأن ذلك المكان يفضى إلى الحصن ففعل .

ولم يشعر أهل الحصن إلا وجنود سابور معهم فى حصنهم ، يمعنون فيهم قتلا وأسراً . ثم عمدت النضيرة إلى أبيها فسقته الخمر حتى أسكرته طمعاً منها فى زواجها من سابور ، ولكن سابور عند ما احتل الحصن قتل أباها ، وأمر بهدم الحصن .

هذه هى قصة هدم حصن أبى الضيزن ، وقد أكثرت كتب الأدب والسير من ذكر الضيزن وحصنه ، وخيانة ابنته له ، وزوال ملكه ، وضربت بذلك الأمثال .

كل ذلك كان بين سنة ٢٣٦ وسنة ٣٢٨ بعد الميلاد .

ما قيل فيها :

هى من المواضع التى ذكرت بالجمال والتهتك وشرب الخمر لأنها كانت محفوفة بالكروم والشجر والحانات والمعاصر ، وكانت أحد المواضع المقصودة للهو والبطالة ، وقد وصفها بهذا الوصف ياقوت والشابشتى والعمرى[2] ، وغيرهم من المؤرخين الذين ذكروها ، ولهذا السبب جعلها الفرس مصيفاً لهم ، يصطاف بها أمراؤهم وسراتهم .

وقد بقيت هذه المدينة عامرة جليلة القدر ، يؤمها الخلفاء والفتاك ، من أهل المجون والبطالات حتى الفتح الاسلامى حين بدأ الخراب يدب فيها . فنى معركة القادسية جعلها رستم قائد الفرس مباءة لجيشه ، قال البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان[3]

(١) فى الكامل للمبرد أن هذا النهر بين سنجار وتكريت ، ويظهر فى هذا الخبر أن هذا النهر فى وسط العراق ، وقد ذكره ياقوت ج ٤ ص ١٢٠ عند هذا الكلام على دير أبون حيث قال : وفيه يقول بعضهم يذكر محبوبة له كردية عشقها بقربه :

فياظبية الوعسا هل فيك مطمع   لصاد إلى تقبيل خديك ظمآن
وأنى بالثرثار والحضر حلق   ودارك دير أبود أو دير مهران
سقى الله ذاك الدير غيثا وأهله   وما قد حواه من قلال ورهبان

(٢) الشابشتى ورقة ١٠٢ والعمرى ص ٢٨٤ وياقوت ج٦ ص ٧٩

(٣) البلاذرى ص ٣٦٤ .

« وقدم رستم ذو الأكتاف فكان معسكراً بطيزناباذ » .

وسقطت هذه المدينة بأيدى المسلمين فى جملة ما سقط من المدن سنة ١٥ هـ ٥٣٦ م فدب إليها الخراب ولكنها استعادت بعض مجدها فى عهد المسلمين حيث اقتطعت للأشعث بن قيس الكندى[1] فعمرت بعد الخراب ، وازدهرت بعد الاضمحلال ، وصار للأشعث بن قيس فيها قصر فخم فى عهد الأمويين ، وكان هذا القصر يعتبر من القصور المشهورة ، والمواقع المذكورة[2] .

ثم سما شأنها فى عهد العباسيين حيث صارت من أنزه المواضع وأجملها يقصدها الشعراء ويؤمها الفتاك ، وقد ذكر ياقوت فيها « لأهل الخلاعة فيها أخبار يطول ذكرها » وقد قال فيها أبو نواس[3] :

قالوا تنسك بعد الحج قلت لهم :   أرجو الإله وأخشى طيزناباذا
أخشى قضيب كروم أن ينازعنى   رأس الخطام[4] إذا أسرعت إغذاذا
فان سلمت وما نفسى[5] على ثقة   من السلامة لم أسلم ببغذاذا
ما أبعد الرشد ممن قد تضمنه   قطربل فقرى بنا فكلواذا

وذكرها أبو نواس فى مواطن أخرى مثل قوله :

فتنتنى طيزناباذ   وقد كنت تقيــا
إذ تركت النساء فيها   وشربت الخسرويـا
أرض كرم تنبت الدهــر   شراباً ســابريا

ثم هى أجمل من بغداد وقصفها ولهوها ، بل هى أجمل من أى موضع فى العراق لأن أبا نواس قال فيها :

وقائل هل تريد الحج قلت له :   نعم إذا فنيت لذات بغداد
أما وقطربل مصحى بحيث أرى   فقنة الفرك[6] من أكناف كلواذى[7]
فالصالحية فالكرخ التى جمعت   شذاذ بغداد ما هم لى بشذاذ
فكيف بالحج لى مادمت منغمساً   فى بيت قوادة أو بيت نباذ

(١) فى معجم البلدان « إنها كانت إقطاعا للأشعث بن قيس بن عمر بن الخطاب » .

(٢) لغة العرب السنة الثانية .

(٣) هذه القصيدة فى الديوان ثمانية أبيات .

(٤) فى الديوان رأس القطار ، وفى العمرى فضل الخطام .

(٥) فى الديوان والعمرى وما قلبى .

(٦) الفرك بكسر الفاء وسكون الكاف قرية كانت قرب كلواذى

(٧) طسوج قرب بغداد ، وبنا من نواحى بغداد أيضا بينها نحو فرسخين وهى تحت كلواذى .

وهبك من قصف بغداد تخلصنى كيف التخلص لى من طيزناباذ

جاء فى ياقوت[١] : قال على بن يحيى حدثنى محمد بن عبيد الكاتب قال قدمت من مكة فلما صرت إلى طيزناباذ ذكرت قول أبى نواس حيث قال :

بطيزناباذ كرم ما مررت به إلا تعجبت ممن يشرب الماء[٢]

إن الشراب إذا ما كان من عنب داء، وأى لبيب يشرب الداء

فهتف بى هاتف أسمع صوته ولا أراه فقال :

وفى الجحيم حميم ما تجرعه خلق فأبقى له فى الجو أمعاء[٣]

أقول أخطأ ياقوت فى ترتيب هذه الأبيات إذ أن المعنى مضطرب جداً فى البيتين الأولين ؛ ولأجل أن يستقيم المعنى يجب أن يكون هذا البيت « إن الشراب إذا ما كان ... » قبل هذا البيت « وفى الجحيم حميم ما تجرعه » .

وقد ذكر هذا الموضع الحسين بن الضحاك[٤] فى قصيدة مطلعها :

أخوىّ ، هُبَّا للصبوح صباحاً !

هُبَّا ولا تعدا النديم رواحا[٥]

ثم ذكر الدير الذى فى طيزناباذ واسمه دير سرجس فقال :

هل تمدران بدير سرجس صاحباً

بالصحو ، أو تريان ذاك جناحا

هذه هى أخبار طيزناباذ ، وقد اعتمدنا فى هذا على المصادر الآتية :

ياقوت : ج ٦ ص ٦٩ ، ج ٦ ص ٣٩٧ ، ج ٤ ص ١٤٥

مراصد الاطلاع مادة « طيزناباذ » .

الطبرى ج ١، ٢٢٦٤، ٢٨٥٥، ج ٣٠، ٧١٨ الطبعة الأفرنجية

ابن خرداذبة ص ٧١ الطبعة الأفرنجية .

لغة العرب : السنة الثانية .

ابن الفقيه : ص ١٨٣ الطبعة الأفرنجية .

البلاذرى : ص ٢٥٥ ، ٢٧٤ ، ٢٨٤ الطبعة الأفرنجية .

العمرى : ص ٢٨٤ دار الكتب .

ديوان أبى نواس : ١٨٩٨ طبعة اسكندر آصاف ص ٢٧٢، ٣٥٤

الشابستى : مخطوط فى مكتبتنا ص ١٠٢ ؛ ١٠٣

(بغداد)

شكرى محمود أحمد

مدرس العربية بدار المعلمين الابتدائية

---

(١) ج ٦ ص ٧٩ وهذا الخبر ينسب لأبى نواس أيضا ابن منظور ج ١ ص .

(٢) هذه الأبيات غير موجودة فى الديوان .

(٣) لابن منظور رواية أخرى لهذا البيت .

(٤) هذا الاسم فى ياقوت الحسين بن الضحاك ج ٤ ص ١٤٥ .

(٥) هذه القصيدة فى العمرى سبعة أبيات وفى الشابستى اثنى عشر بيتا

تعقيبــات . . .

للأستاذ عباس حسان خضر

أبكار الهموم وعونها — عثرتان — زواج أم كلثوم — آه من الأسعار .

أبكار الهموم وعونها :

كتب الأستاذ محمود محمد شاكر بعدد مضى من الرسالة[1] في موضوع أبيات من شعر بعض الأعراب، تحدث فيها الشاعر الأعرابى عن قصته مع أميمة (حوائه) التى أنكرته إذ رأته « شاحباً مهزولا رثاً أسوأ حالا مما عهدته[2] » ، وكان قد آب من سفره الذى دفع فيه لتحقيق أحلامها ، وجعلت تسائله مساءلة المتجاهل المزدرى : من أى الناس أنت ، ومن تكون ؟ فإنى أراك فى حال لا تليق براعى إبل ، فضلا عن محب يطمع فى مثلى ! فقال لها — وقد تكشفت له حقيقة حواء — : إذا كان مطلبك وغاية نفسك رونق الجسم واكتناز اللحم والشحم فمليك براعى غنم يعيش فى خفض ورغد من لبنها وزبدها . . .

إلى أن قال مكملا وصف هذا الراعى :

سمين الضواحى ، لم تؤرقه ، ليلةً
— وأنعم — أبكارُ الهموم وعُونُها[3]

وقف الأستاذ شاكر عند كلمة « أبكارُ الهموم وعونها » تخال فيها ما لا أراه يخال ، إذ قال إن هذا الأعرابى « قد أراد أن يعلم (أميمته) الباغية أنها إذا كانت تؤثر عليه امرأ غضاً ناضراً ناعماً لم تؤرقه هموم النفس ولم يفسر به الكدح فى بوادى الأحلام والآلام والآمال ، فإنه غنى عنها ، وعن سائر نساء العالمين — وأن أمثالها لسن له بهمٍّ ، وأن له من حاجات نفسه وهمومها (أبكاراً) كأبكار النساء و (عوناً) كعونها » ، وقال فيما يريد بالأبكار : « فإن للنفس الشاعرة هموماً (أبكاراً) لم تمسسها يد ولا فكر ولا حلم » وقال فيما يقصد بالعون : « وللنفس أيضاً هموم (عون) قد أصاب الناس منها ما أصابوا ولكن بقيت منها للنفس الشاعرة بقية فاتنة بما فيها من دلال وكبرياء وقدرة على الامتناع عند الإمكان ونبل فى الخضوع والتسليم عند العجز » .

فهل هذه الكلمة الفطرية « أبكار الهموم وعونها » قِبَلٌ بتحمل كل هذا ؟ وهل كانت نفس ذلك الأعرابى فى باديته وحياته الساذجة تنطوى حقاً على كل هذه الأحاسيس المزدحمة المعقدة . . . ؟

يخيل إلىّ أن الأستاذ محمود محمد شاكر قد تراءت له فى هذه الكلمة أحاسيسه هو ، فخالها أحاسيس الأعرابى ... وهى أمثل به منه ، فما أحسب الأعرابى يريد بأبكار الهموم وعونها أكثر من جديد الهموم وقديمها ، على أن استعمال « الأبكار » فى الجديد من الهم أدنى إلى المعنى الحقيقى من استعمالها فى المختص منه ، وكذلك استعمال « العون » فى قديم الهم أليق من أخذها إلى مشتركه .

أما تلك الظلال التى يمد الأستاذ شاكر رواقها حول البيت فهى ظلال نفسه المترفعة الآنفة الساخرة العائشة على المثل والمعانى

وأما الشاعر البدوى فما يبغى بأميمته بديلا ، مهما تدللت أو بغت عليه ، فإن عاتبها أو غاضبها فإنها بعدُ هوى نفسه ، ولديها محط رحاله ، وما يليق به وهو ابن الحياة الفطرية الساذجة أن يدعها ويضرب فى بيداء المعانى ليتصيد منها أبكار الخيال وعونه

عثرتان :

ليس من دأبى تتبع سقطات الأقلام فى اللغة وقواعدها ، ولكن يهولنى أن يعثر قلم من الأقلام التى يستأنس بها ويتأثرها الناشئون ومن فى حكمهم من غير الدارسين . والذى نحن الآن بصدد التعقيب على جموح قلمه ، هو الأستاذ ميخائيل نعيمة ، وهو من أدباء المهجر الذين جروا فى ميدان الأدب العربى الحديث أشواطاً بعيدة ، ولكنهم أحياناً يصطدمون — فى عدوهم — بأوضاع اللغة ، فلا يعبئون بها !

(١) الرسالة عدد ٦٩٦ .

(٢) من كلام الأستاذ شاكر ، وكذلك المصرح التالى :

(٣) الضواحى : ما برز من الإنسان كالمنكبين والكتفين ، يريد ممتلىء البدن من الراحة والدعة وسكون النفس . والأبكار : جمع بكر ، وهى المرأة لم تتزوج بعد . والعون : جمع عوان ، وهى المرأة كان لها قبل ذلك زوج . أما قوله : « وأنعم » فهى كلمة معترضة أراد بها أن قد طال على ذلك الراعى ما هو فيه من خفض ورغد وراحة ورفاهية حتى ربا وسمن وزاد ، فلم يشغله شىء يضنيه أو يأكل من بدنه .

كتب الأستاذ ميخائيل نعيمة في مجلة « الكتاب[1] » مقالا عنوانه « مهماز البقاء » جاء فيه : « فقلما نجوع إلى أشياء وأشياء كذلك تجوع إلينا أشياء وأشياء ، فنحن أبداً جائعون ومجيعون ، وآكلون ومأكولون » .

فهو يصوغ من الفعل « جاع » اللازم اسم المفعول دون صحبة ظرف أو جار ومجرور ، على أن الصياغة نفسها غير صحيحة إذ جعل واو « مجوع » ياء ، ولو تروى قليلا لقال : « فنحن جائعون ومجوع إلينا » .

تلك واحدة ، والثانية في قوله بنفس المقال : « لكم نخاطب الأموات ويخاطبونا » فقد حذف نون الرفع من الفعل المضارع المتصل بواو الجماعة المجرد من الناصب والجازم فقال : «ويخاطبونا» والصواب أن يقول « ويخاطبوننا » فهذا هو الاستعمال القياسي للأفعال الخمسة الذي يجب أن تجرى عليه الألسنة والأقلام ، دون التفات إلى الشاذ ، مثل :

أبيت أسرى وتبيتي تدلكي ... وجهك بالعنبر والمسك الذكي

زواج أم كلثوم :

نشرت الصحف أخيراً نبأ زواج أم كلثوم ، وقد فوجيء الناس بهذا النبأ ، وقابلوه بشيء من القلق وشيء من الارتياح ! وكأنه قد استقر لديهم أن أم كلثوم – بانقطاعها لفن الغناء – قد خلصت لهم مفردة طليقة ، فما ينبغي أن ينافسهم فيها منافس يستأثر بها . . .

والذي دعا إلى الارتياح أن زوجها الأستاذ محمود الشريف من رجال الفن الموسيقي ، فيرجى ألا يكون حائلا بينها وبين المستمعين الذين تنقلهم – بصوتها الساحر – من أماكنهم إلى حيث تحلق بفنها الرفيع . . .

وليت شعري هل كان أبو الفتح كشاجم يطوي الزمن فيصف « بحة أم كلثوم » إذ قال :

آه من بحة بغير انقطاع ... لفتاة موصولة الإيقاع
أتعبت صوتها وقد يجتنى من ... تعب الصوت راحة الأسماع

وإذ قال :

أشتهي في الغناء بحة حلق ... ناعم الصوت متعب مكدود
كأنين المحب أضعفه الشو ... ق فضاهى به أنين العود
لا أحب الأوتار تعلو كما لا ... أشتهي الضرب لازماً لعمود

ولعل أم كلثوم تواصل حفلاتها الشهرية التي تذيعها محطة الإذاعة ، فالناس يتجاوزون للمحطة من أجلها عن كثير . . .

وبعد فإن من حق أم كلثوم التي تبعث إلى قلوبنا البهجة والغبطة – أن نفرح لفرحها ونتمنى لها أطيب التمنيات .

آه من الأسعار :

قال لي صاحبي ، وقد لمحت على وجهه ما دلني على أنه ظفر بشيء عزيز المنال : أتحب أن ترى شيئاً من « السماحيات » التي تسمع وتقرأ عنها في هذه الأيام ؟ ودس يده في جيبه بعناية ، فأخرج قلماً ثميناً من (ماركة) مشهورة . فتناولته من يده ، وأجريته على القرطاس ، فجرى ليناً ، يكاد يجر اليد إلى الكتابة جراً . . . بل يكاد يمتح من القريحة متحاً . . . فرددت بصري بين وجه صاحبي الظافر . . . وبين القلم الذي يقول لي : هيت لك ! ثم رجع البصر إليّ خاسئاً وهو حسير . . وأعجلني صاحبي – سامحه الله – في رد قلمه ، وهو مغتبط بالحديث عنه قائلا :

– أتدري بما ثمن هذا القلم ؟

– أعلم أنه يباع في السوق بنحو خمسة عشر جنيهاً ، فمن لك به . . . ؟

– أحضره فلان من أمريكا بمائتين وخمسين قرشاً !

عجباً ! قلم يصنعه الصانع في أمريكا ، يشتري مواده ، ويحليه بالذهب ، ويبذل فيه بارع فنه ، ثم يشتريه التاجر هناك ليبيعه بربح ، فيكون الثمن بعد كل هذا مائتين وخمسين قرشاً ، فإذا ما جاء إلى مصر بلد العجائب صار ثمنه خمسة عشر جنيها ... ! يا ضيعة المنتج والمستهلك بين أظفار التاجر !

ولقد كنا نتلمس الأسباب لغلاء المستورد من الخارج إلى مصر ، ونحار لما يدعو إلى غلاء لحمها وسمنها وفولها وعدسها وبصلها ... فإذا الحيرة تتردد بين هذا وذاك ، وتجول هنا وهناك ، كما يجول الكلب الشرطي ، وتتشمم كما يتشمم ، فتكاد تمسك بالتاجر ، وأنى لها أن تنال منه وقد انتفخ وبدا «سمين الضواحي» فلا تملك إلا أن تردد ما قال شوقي في غلاء ما بعد الحرب التي قبل الماضية :

(١) عدد ديسمبر الحالي

وفاء الشـــعراء

قضـــــية

[مهداة إلى صاحب « أنات حائرة »]

للأستاذ عبد الرحمن صدقى

قضيـةُ أرملٍ نذر الوفاء   حكاها الناسُ أياماً وِلاء
حكوا أنّ الفتى عدِم الرجاء   وراح يصبُّ كالحمِ البكاء
وقالوا ضـاقت الدنيا عليه   وما يجدنّ فى امرأةٍ غَناء
وزادوا أنه نظم المـــراثى   وخلَّدَ ذِكر زوجته رثاء
وأقسَم أن يعيشَ بلا شريكٍ   وأفرط فى تحدِّيه القضاء
وسار على الوفاء لِواءَ صدقٍ   وقد عقدوا له فيه اللّواء
فيالله من نفرٍ حيـارَى   فما يدرُون أحسنَ أم أساء
حكوا أنَ قد تزوج بعد حينٍ   وضمَّ إليه من حسبٍ كفاء
وزادوا أنّ أفراحاً أُقيمت   وأنّ عجيجها ملأَ الفضاء
أجل ، من بعد أعوامٍ طوالٍ   وكانت باللظى الكاوى مِلاء
أجل ، قد أعرس الرجل المعنَّى   ولـكن ، هل نفى هذا الوفاء ؟ !
عجيبٌ أمرُ هذا الناسِ تعشو   نواظرُهم فلا تعدو الغِطاء
هو القلب الصديع ترون شطراً   أمامكم ، وسـائرُه وَراء

عبد الرحمن صدقى

لجســـمك . . .

للأديب محمد محمد على

لجسمك أنغامٍ يشيع أُهتافها   بروحى ، وأنسام يهب عبيرها
ودنيا من الأحلام منى قريبة   يفيض بقلبى بشرها وحبورها
وسحر يلف الآن روحى نعيمه   فتنمو بها أهواؤها وشعورها

***

لجسمك نجوى يا فتاتى سمعتها   ورن بأعماق الفؤاد صداها
تحدثنى من غير صوت ولا فم   وأسمع منها صفوها ورضاها
كأنك أشواق مجسمة بدت   لعينى ، أرى أحلامها ورؤاها

***

لمـــستك يا أختى بجسمىَ مرة
فأحسست روحى من ملامســه تنمو
وصرت أرى فى كل موضع لمسة   عبير أزاهير يجسمها الوهم
وللجسم مثل الروح حلم بروده   وآفاق حب بين أقطارها يسمو

***

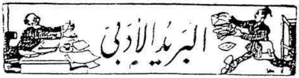
تعالى نعش فى جنة الأرض ساعة   تحيط بنا غدرانها وطيورها
فما هى إلا مبتداة ثم بعـــدها
خُطاً نحو أفق الروح ، سوف نسيرها
ومن لم يجب للجسم داعيه لم تزل   على روحه أقفافها دستورها

محمد محمد على

عبادك رب قد جاءوا بعسر   أنيلا سقت فيهـــم أم سرابا
حنانك واهدِ للحسنى تجاراً   بها ملكوا المرافق والرقابا
ورقق للفقير بهـــا قلوباً   محجرة وأكباداً صـــلابا
أمن أكل اليتيم له عقاب   ومن أكل الفقير فلا عقابا ؟ !
أصيب من التجار بكل ضارٍ   أشد من الزمان عليه نابا
يكاد إذا غـــذاه أو كساه   ينازعه الحشاشة والإهابا

يا ولاة الأمر ، إنا نستعديكم على هؤلاء التجار ، وإلا فإنا نستعدى عليكم الشعراء ، فإن لم يهبوا فحسبنا أمير الشعراء ، فإن لم يغنِ فحسبنا الله ونعم الوكيل .

عباس حسان خضر



مات الأمير شكيب أرسلان :

مات الأمير شكيب أرسلان ! بهذا هتف الناعي عشية يوم الإثنين الماضي ، فوجمت النفوس للنبأ الأليم ، وجزع أبناء العروبة لفقد ذلك الرجل العظيم ، واستفاضت الحسرات أسىً ولوعة على علم من أعلام البيان العربي ، ورسول من رسل الإصلاح الإسلامي ، وقف حياته الطويلة الحافلة على الجهاد للحق ، والدفاع عن الحرية ، حتى غلبه الموت ، وهو الذي طالما غلب الأهوال وارتفع على الشدائد والأحداث .

لقد كان الأمير شكيب – رضوان الله عليه – بالفكرة التي يمثلها ، والغاية التي عاش لها ، علماً من أعلام تلك المدرسة المنجبة المنتجة التي وضع أساسها باعث الشرق السيد جمال الدين الأفغاني ، وتولى رعايتها المصلح العظيم الأستاذ الإمام محمد عبده ؛ فكان يرى الاسلام عقيدة جامعة ، والعروبة رابطة شاملة ، والاحتفاظ بتراث السلف دعامة لنهوض الخلف ، فكان هذا هو جماع الفكرة فيما يكتب وينصح به ويجاهد له .

كان الأمير شكيب في كل ما يكتب يرعى حق الدين وحق الاصلاح الشامل ، وكان يفزع لكل مسألة إسلامية ، ويزأر لكل نازلة شرقية ، ويجاهد لكل قضية عربية ، ويوجه خطابه دائماً إلى أحرار المسلمين ، ويهيب بجميع أبناء العروبة . ولقد كان له من طيب الأرومة ، ونباهة المحتد ، واتساع الثقافة والصلة بالناس ما ارتفع بمكانته ، وأسمع بكلمته .

وكان الأمير شكيب في مطلع هذا القرن ينهض بفكرته تحت لواء الخلافة العثمانية ، وكان يعمل على توفيق الصلة بين الترك والعرب دائماً ، وكان يرجو أن تمازج الوحدة العربية وما يسمونه بالوحدة الطورانية لتكونا وحدة إسلامية جامعة للصفوف ، مانعة من تلصص الاستعمار الغربي . فلما تقلص ظل الخلافة عن الآستانة ، ونزل الهلال عن قصور آل عثمان ، وقف الأمير شكيب يدعو العرب للوحدة في وجه الاستعمار والتكاتف ضد الدخيل الأجنبي . وفي هذا السبيل كم احتمل رحمه الله ما احتمل من الأحداث الرهيبة حتى قضى عليه ذلك أن يعيش غريباً عن أهله ، نائياً عن وطنه ، فأمضى النصف الأخير من حياته يطوف آفاق أوربا ، وكان يؤثر الاقامة إما في فرنسا لأنها أكثر مقصداً لرجالات العرب ، وإما في سويسرا لأنها موطن الأحرار . .

وعلى أي فقد كان وجوده في أوربا كأنه الديدبان للأمة العربية ، فما كانت تركة في صحيفة أو فكرة في مجالس السياسة تمس الاسلام وتنال من العروبة إلا تصدى لها وكتب في تفنيدها . وكان وهو في مطارح الغربة يملأ الصحف في سائر الأقطار العربية بمقالاته وبحوثه الضافية ، وما شغلته مشاغل الحياة وأعباء الغربة عن القراءة والكتابة ونشاط الذهن لحظة .

ومنذ عام أذاعت الصحف أن الأمير في غربته يشكو مرض القلب ، وأن كل ما يرجوه عند موته ويتمناه على الله قبل أن يدركه الموت أن يرى والدته التي حرم رؤيتها منذ سنوات ، وأنه لا يوصي بشيء إلا أن يدفن رفاته في تراب وطنه . وبعد مشاورات بين رجالات العروبة والسلطات الأجنبية تم الاتفاق على عودة الأمير ، فعاد وهو يحمل ثقل الداء المتمكن وأقام بين عشيرته زمناً يغالب الموت حتى غلبه الموت .

مات الأمير شكيب ، ولكنه خلف من ورائه سيرة عاطرة بالجهاد للحرية ، وحياة حافلة بالكفاح للقومية ، وتراثاً من الفكر يضن به الزمن على البلى . وليست هذه الكلمة العاجلة العابرة بشيء في جانب ما أسدى وأجدى وخدم به القضية العربية والفكرة الإسلامية ، فموعدنا بوفائه سلسلة من المقالات نترجم بها حياته ونعرض فيها تراثه في الأعداد القادمة من الرسالة إن شاء الله .

محمد فهمي عبد اللطيف

حفلة المجمع اللغوي لاستقبال الأعضاء الجدد :

كانت الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الخميس الماضي موعداً للجلسة العلنية التي عقدها مجمع فؤاد الأول للغة العربية لاستقبال الأعضاء العشرة الذين عينوا به أخيراً .

وقد حضر إلى دار المجمع في الموعد المحدد – عدا الأعضاء القدماء والجدد – طائفة من رجال العلم والأدب ، فافتتح الحفل سعادة رئيس المجمع أحمد لطفي السيد باشا بكلمة وجيزة رحب فيها بالأعضاء الجدد ، وقال إن أمام المجمع مهام جسيمة نرجو

بعونهم أن نسير فيها ، وأشار إلى أن أعضاء المجمع قد بلغوا الأربعين ، وهو أقصى مايمكن أن تتسع له حجرة الاجتماع ، وهو لذلك يذكر الحكومة بضيق مكان المجمع الحالى .

ثم ألقى الأستاذ أحمد أمين بك كلمة المجمع فى استقبال الأعضاء الجدد ، فبدأ ببيان ما تدل عليه كلمة « مجمع » وذكر تعريف كاتب انجليزى للمجمع بأنه هيئة متعاونة غرضها تهذيب وترقية الأدب والعلم والفن ، يدعوها إلى ذلك العشق الخالص لغرضها . وأشاد الأستاذ بكلمة « عشق الغرض » وأثرها فى الإنتاج ، وقال إن هذا العشق لم يكن بعيداً عنا نحن الشرقيين فقد قامت منا أفراد بما تقوم به المجامع كالأزهرى وابن منظور ، وذكر أن أمام المجمع مشاكل لابد أن يجد لها حلولا ، وأن له غايات ومطالب ، منهـا وضع معجم واف بحاجات العصر ، ومعجم تاريخى مطول ، وأن يكون المجمع محكمة عليا للانتاج الأدبى فى العالم العربى ، وأن يكون حارساً على اللغة ليشرف على ما يكتب فى الصحف وما يستعمل من ألفاظ وأساليب ، وأن يستحث الحكومة والأغنياء على التبرع بالمال لتشجيع الأدباء على الانتاج .

وقال إنه وجهت إلى المجمع نقود كثيرة من أن نتاجه قليل أو أنه يختار ألفاظاً لم يستسغها الجمهور ؛ ودفع بأن طبيعة المجمع دائما طبيعة محافظة ، وأن طبيعة العلماء تميل إلى التدقيق والبطء ، وتفضل النتاج الصحيح القليل على النتاج الكثير فى غير نضج ، وبأن ليس للمجمع استقلال مالى يشعره بالحرية فى العمل . ثم رحب بالأعضاء الجدد وعرف كلا منهم بكلمة قصيرة . ومن الطريف أنه قال عقب ذلك « هذا — أيها السادة — عرض سريع لهذه العشرة الطيبة » فضحك الحاضرون من كلمة « العشرة الطيبة » .

ثم قام الدكتور ابراهيم مدكور ، فألقى كلمة الأعضاء الجدد فأشاد بفضل المجمع وبين حاجة البلاد اليه ؛ وشكر هيئة المجمع على الحفاوة به وبزملائه الجدد ، وقال إن المجمع يمتاز بخصائص ثلاثة : عمل صامت ، وتعاون صادق ، واعتدال وحكمة . ثم أفاض فى الحديث عن قوانين علم اللغات المقارن التى من أهمها أن اللغات جميعها تخضع لقانون السير والحركة والتغير والتحول إلى أن قال» إن اللغات فى حركة مستمرة ، فمن العبث أن نعترضها ونقف فى طريقها ، أو أن نفرض عليها قوالب جامدة لانلبث أن نخرج عليها . وإن الصورة المثالية القديمة التى كانت تفرض للغات لا يقرها العلم المعاصر ولا يقول بهـا وأصبح يدعو إلى مثالية أخرى عملية ونافعة . فاللغة المثالية هى التى تصدر عن روح العصر وتتمشى مع حاجاته ومطالبه ، على أخصر صورة وأوضح مظهر »

وبهذه المناسبة نذكر أن عدد أعضاء المجمع وقت إنشائه سنة ١٩٣٢ كان عشرين عضواً ، وفى سنة ١٩٤٠ زاد عشرة فصاروا ثلاثين ، وفى ٢٨ نوفمبر الماضى صدر مرسوم بتعيين عشرة جدد ، هم : الدكتور عبد الرازق السنهورى باشا ، والدكتور ابراهيم بيومى مدكور ، والدكتور عبد الوهاب عزام بك ، والدكتور أحمد زكى بك ، والدكتور محمد شرف بك ، وزكى المهندس بك ، والدكتور مصطفى نظيف بك ، والشيخ محمود شلتوت ، ومحمد فريد أبو حديد بك ، والشيخ عبد الوهاب خلاف .

وكنا نأمل أن نرى بين هؤلاء الأعضاء الذين عينوا أخيراً بعض أبناء الأمم الشقيقة ، وخاصة غير الممثلة فى المجمع كفلسطين وفيها الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى ، وهو — كما يعلم الجميع — من أعلام العصر فى اللغة والأدب .

(ع . ح . خ)

مجلة الأزهر فى عهدها الجديد :

الرسالات الروحية مجال واسع للدرس العميق ؛ والتحليل الدقيق ؛ والإسلام ينال من عناية هذه الدراسات المختلفة فى جميع اللغات حظاً غير منقوص . والأزهر . وهو القوام على رعاية الرسالة الإسلامية ؛ الذائد عنها ؛ الممهد لها السبل فى غمرة هذا الزحام المتضاغط من الدعايات المذهبية التى تناهض تلك الرسالات ؛ وأمضى سلاح فى يد تلك المذاهب ماترمى به عن قوس الصحافة ، لذلك كانت الجهود المبذولة لترقية مجلة الأزهر وتدعيمها تقابل بالتأييد ، وتحف بالتشجيع . وقد جاءت — المجلة — حاملة خلاصة مصفاة لتلك الدراسات التى تتناول الجوانب الخليقة بالتناول من تلك الرسالة الخالدة ؛ وهذه نفحة من نفحات الأستاذ الأكبر الذى مكنته حياته العلمية النشيطة من الوقوف على ثقافة الجامعات الأوربية وأنظمتها وأهدافها ؛ وهذا خير ماتتطلبه الحياة الجامعية الأزهرية . وتتجلى فيهـا أبداً من مجهودات الأستاذ الباحث الموفق — فريد بك وجدى — رئيس تحريرها ومدير دفتها ، حتى تستطيع أن تؤدى رسالتها فى خدمة الشرق والإسلام .

محمد عبد الحليم أبو زيد



بمناسبة مشاهدة وفود الجامعة العربية لرواية :

حواء الخالدة

بدار الأوبرا الملكية

للأديب خليل منصور الرحيمي

مسرحية ألفها الكاتب الكبير (محمود تيمور بك) وأخرجها الأستاذ الكبير زكي طليمات ، ومثلتها الفرقة المصرية. وقد استطاعت هذه المسرحية أن تفرض نفسها على الجماهير — خاصتهم وعامتهم — أياما وأياما . كانت طيالها حديث المشاهد العادى وشغل الأديب والناقد . فهل أتيح لها ذلك كله اعتباطا وعفو المصادفة ، أم تهيأ لها ذلك بما أودعته من خصائص فنية هى وحدها الحكم فيما يكتب له الخلود من ثمرات القرائح . وما يكون نصيبه الموت فى ساعة ميلاده . ذلك ما سنحاول تبيين أمره فى نقدنا للمسرحية .

وقبل الدخول فى صميم النقد نحب أن ننبه إلى أمور لها دلالتها التى يجب ألا تفوت المعنيين بشئون الفن فى مصر . وبخاصة الفن المسرحى .

أولاها أن هذه المسرحية كتبت بلغة عربية فصيحة . وكان من الأراجيف الشائعة فى الأوساط الفنية ، أن لغتنا الفصحى لا تجد استجابة من الجماهير ، فضلا عن أنها تعوق المؤلف عن النفوذ إلى أغوار شخصياته مستجليا خفاياها معبراً عن خلجاتها فكانت استجابة الجمهور لمسرحية (حواء الخالدة) شاهدا صادقا على كذب ما يرجف به القاصدون . فليس باللغة قصور ولا بالجماهير عقم ، ولم يعد من السائغ مد يد اللاتينة إلى العامية المبتذلة جريا وراء ادعاء ثبت بطلانه .

وثانيتها أن المسرحية ، من المسرحيات ذات الموضوع ، وقد عولجت بطريقة علمية ، فلم يعمد فيها المؤلف إلى إثارة عواطف الجماهير بالحوادث والمفاجآت والشوقات المفتسرة .

ولكنه استخدم الحوار للتعبير عن الحادث ومنزاه وسببه فى آن معاً ، فساوق بين العقل والعاطفة فى كشفه عما يختلج فى طوايا النفوس ومايستتر فى أعماقها . وتلك طرفة جديدة فى فن المسرحية المصرية ، تبعد بها عن (بهلوانيات) الحوادث المفتعلة والاعتماد فى التشويق على النكتة المتعمدة ... ومن هنا كانت هذه المسرحية بدء النقلة الجدية فى حياتنا الفنية ، والاتجاه بها وجهة سامية .

ونعود إلى المسرحية فنقول إنها موضوع وعلاج ، ثم عرض وإبراز . أما الموضوع والعلاج فمن عمل المؤلف ؛ وأما العرض والإبراز فمن عمل المخرج والممثل ، ونبدأ حديثنا بالموضوع ، وكيف عولج .

تدور المسرحية على قصة عنترة وعبلة ، تلك القصة التى انحدرت على ألسنة الرواة من أغوار الماضى ، ولا تزال شائعة على ألسنة الناس . فعنترة شاعر فارس تيمه الحب ، فلم يعد يرى من الدنيا غير محبوبته ، يهجر من أجلها الديار ، ويركب فى سبيلها الأخطار ، ويرضى إكراما لها بالهوان وإن كان أشجع الشبان . وعبلة حسناء بدوية ، امتلأ قلبها بالحب لفارسها الأسود فزهدت وقاءه له فى نعيم الحياة ، وانتظرت المناه فى ظله وحده دون الناس جميعا .

فاذا فعل تيمور بتلك المادة التى تقدمها إليه أقاصيص الرواة بيد جامدة فى قفص صلب من جلال الماضى .

لقد ارتفع تيمور بالقصة على أوضاع الزمان والمكان والحادث الخاص ، فجعل منها قصة إنسانية عامة ، دائمة الحدوث ودائمة التجدد ، غير متقيد بما يروى عنها من أخبار فالحادث لا يعنيه ، وإنما تعنيه دلالته ، وذاتيته لا تهمه ، وإنما تهمه إنسانيته ... فالفرد عنده وحدة تتركز فيها أهواء الإنسانية كلها ، بل أنموذج صادق لنوازع النوع البشرى عامته ، على شتى تباين هذه النوازع . فالمسرحية إذا من مسرحيات النماذج البشرية ، التى لا تعرض الأشخاص بخصوصياتهم ولكن بدلالاتهم الإنسانية . تلك الدلالات التى تهيء لها نوازع أصيلة واغلة فى أعماق النفوس . بدأت مع الناس منذ بدء الخليقة ، وصاحبتهم فى موكب الحياة ، وستظل لهم مصاحبة أبدا . تلبس لهم كل لباس ، وتتبدى لهم فى كل لون .

فعبى فى البادية صبية خجول ، تمنع نقابها وعينها من ورائه

فاحصة . وهي في الجاهل مروعة نفور تستتر بأوراق الشجر ، ونفسها مشرئبة متطلعة . وهي في المدنية الحديثة متبرجة سافرة وحيلتها حاضرة عاملة ... إنها هي هي ، في الماضي ، والحاضر ، وستكون هي عينها في المستقبل ، فهي حواء التي لا تحول ، حواء الخالدة

من هذه الزاوية نظر تيمور إلى تلك القصة . فلم تكن عبلة غير امرأة ، امرأة من بنات حواء ، بل قل إنها حواء نفسها ؛ حواء التي مدت يدها إلى آدم بالكأس المرة اللذيذة منذ بدء الخليقة ، فتجرعها مستلذا مرارتها . ولم تزل تمد له يدها ولم يزل يتجرع الكأس ويستلذها ، وليس يعنيها من أمره إلا أن تراه أمامها ، بل وراءها ، بل محيطا بها من كل أقطارها . تحاربه لتحارب به وتدنيه لتصل به إلى غايتها ، ثم تقصيه لتشبع غرورها بلذة سعيه إليها ، غير باخلة عليه بكلمات الحب والإخلاص ، ودموع العطف والرثاء . فمن هذا المزاج تملأ له تلك الكأس المرة اللذيذة ، التي يتجرعها مستلذا مرارتها . فما هو الدافع الخفي الذي يقف المرأة من الرجل هذا الموقف ؟ ؟ بل الذي يوجه غرائزها وطباعها إلى ذلك . أرادت أولم ترد ؟ ؟

إن المرأة تعبد القوة وتهيم بها — قوتها هي — تلك الهبة التي حرمتها منها الطبيعة فكان لزاما عليها أن تلتمسها في غيرها ثم تفرض نفسها على ذلك الغير ، لتكون هي الدافعة والمحركة ، فهي القوة وهو آلتها ، أما وسيلتها إلى تحقيق تلك القوة أو أخذها قسرا من الرجل ، فهي شباك الطبيعة المعطاة لها من جمال ودلال ، تتلمس بهما إعجاب الرجل ، لتفرض عليه شخصها فإن بطل إعجابه بها ، فقدا نهارت قوتها ، وحق لها أن تغدر وأن تخون .

ونتلمس مدى صدق هذه النظرية في عبلة فنراها تحب عنترة القوي بجسمه وروحه ، مفاخرة بنات حيها بذلك الحب . فهي (عن عنترة أخذت بلاغة الشعراء) ثم هي مفتونة به ، لأنها لا تجد سواه (من يحمي الذمار ويذود عن الحمى) ولكنها كما قلنا تحب القوة في نفسها ، فلا بد أن يكون عنترة لها تبعا ، ومن هنا جاز أن تدفعه إلى المخاطرة بمصاولة الضرغام ، ليأتيها بجلده . والويل له إذا لم يأت به . لأنها لا تعرف إذ ذاك (ماذا تقول لنساء الحي إذا هو عاد صفر اليدين) . فنفسها وغرورها وفرض شخصيتها هو همها الأول .

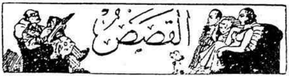
ولكن للقوة مظاهر غير الشجاعة . فهناك قوة الجاه والثراء تعرض لها متمثلة في شخص الأمير (عمارة الكندي) ، الذي زور الحي فتلاقيه عبلة يدفعها الحنق من غياب عنترة ، وتأخذ في ملاطفته ، حتى إذا ما عاد بطلها حاملا إليها جلد الضرغام نسيت الأمير وجاهه ، لأن غرورها وجد وقوده . ولكنها تريد أن تتأكد لنفسها من أنها تستطيع استلاب هذا البطل أعز ما يملك ، ألا وهو سمة رجولته وعنوان شجاعته ، فتحتال عليه حتى يحلق لحيته . ثم لا يكون جزاؤه منها إلا التأبي ، لأنها لا تريد غير عنترة القوي ! ويذهب عنترة إلى فارس وتطول غيبته هناك ويجد الأمير في غيابه منفذا إلى قلبها ، فترضاه خاطبا إن جلب لها مطلبها المرهق من النياق العصفورية . فيرحل هو الآخر في طلبها .

ولكن نبيء عنترة يأتيها فتبكي فيه حبها ؛ بل تبكي فيه البطل الأجوف الذي ينشر أحاديث حبها ؛ وسرعان ما تسمع بمقدم الأمير فتخف لاستقباله مراعاة لأدب الضيافة . وأدب الضيافة أحد سيوف المرأة الفواتك . ولكن عنترة لم يمت ، فقد عاد إليها من (فارس) ، بقلب جديد ، لا يؤثر فيه نسيم الصحراء ، ولا يسبيه حديث الندام ، ولا يأسره سحر العيون ... عاد عنترة المدني الجديد ... فتحتال لاسترجاعه ، ولكن كيف ، وقد تفتحت عينه على ما لم يدر من الدنيا ، فتثور فيها الضغينة على قوتها المفقودة . وإذ ذاك تمد له الطعنة النجلاء ، بأن تميده إلى رقها بما تملك من وسائل ، ثم تولى عنه انتقاما ، ويتم لها ذلك ، فتطمئن عنترة الذي حركت في قلبه الهوى ، وتنحاز إلى خاطبها الأمير ، معتذرة عن مداعبتها له بأنها كانت تلهو معه ، ولو صدقت لقالت (كنت ألهو به) ! !

وتزف إلى الأمير وإن قلبها لضائق به . وما إن يعرض لها ركب عنترة ، حتى تغري أميرها بنزاله ، وتدفعه بيدها إلى الموت بسيف عنترة . ثم تعود لتنظر إليه ، وقد أصبح سيد الموقف ، وتئن له النداء ، كما كانت تئنه . فتنسيه ما كابد بسببها من هوان ، وما تجشم من أخطار ، ويعود إليها منصاعا مغلوبا على أمره ... فأي شجاعة في قلب هذا البطل المقتحام . وما غناء شجاعته إذا كانت الحرب بينه وبين حواء ! ! !

لقد استطاع تيمور بحق أن يعرض لنا صورة عارية للمرأة ، تلك التي تلعب بالرجل لتعوض به نقصها ، بل لتسلبه قوته لنفسها ، وهو هو المطية الذلول ، سواء أكان أشجع الشجعان أم أهو من أهل الهوان ، كل هذا في أسلوب شائق جذاب ، وحبك محكم يستحق عليه تهنئة الناقد وتقدير الأديب .

خليل منصور الرحيمي



وفـــاء . . . !

للقصصى الفرنسى جى دى موباسان

بقلم الأديب السيد كمال الحريرى

كانت عربة القطار غاصة بالركاب منذ « كان » ، والأحاديث تدور على ألسنتهم ، بعد أن تعارفوا أو تآلفوا . وحين مر القطار « تاراسكون » قال أحدهم .

— فى هذا المكان تجرى حوادث القتل . وهنا طفق الركب يتكلمون عن سفاك مجهول ، أعجز الأمن وأخذ منذ عامين يعيث فتكاً بأرواح المسافرين فكل أخذ يبدى عنه افتراضاته ويدلى برأيه ، أما النساء فكن ينظرن برعب إلى الليل البهيم من خلال زجاج العربة ، وقد خفن أن يبصرن فجأة رأس ذلك السفاح يطالعهن من باب غرفة القطار .

ثم أفاض المسافرون فى سرد قصص مرعبة ومصادفات مفزعة ومجابهات مع المجانين فى عربات القطار .

كل حاضر كان يعلم حادثة من هـذا النوع راح يسردها على شرف جرأته . وما منهم من زعمه ، إلا سبق له أن خوف لصاً أو صرع مجرماً أو جندل أثيماً : فى ظروف غريبة وبديهة حاضرة وشجاعة فائقة . وأراد طبيب اعتاد كل شتاء عبور جنوب فرنسا أن يدلى بدلوه بين الدلاء فقال .

— أما أنا فلم يسعدنى الحظ باختبار شجاعتى فى ظروف كهذه ، بيد أنى أعرف امرأة من زبائنى المرضى « وتوفيت الآن » حدث لها أغرب حادثة يمكن أن تحدث فى هذا العالم .

لقد كانت روسية ، واسمها مارى بارانواى ، وهى من كرائم العقائل ، ذات جمال ساحر وحسن رائع . وأنتم تعلمون كم هن جميلات الروسيات ، أو على الأقل كم يظهرن لنا حساناً فاتنات بآنافهن الدقيقة ، وثغورهن الصغيرة ، وعيونهن الزرقاء السنجابية وإن فيهن مزيجاً غريباً من الوقاحة المغرية ، والكبرياء الحلوة والقسوة المعطوف ، التى تجتذب قلب الفرنسى وتأسره .

وفى الحق قد يكون اختلاف الجنس هو الذى يربى فيهن هذا النوع من الجمال .

لقد كان طبيبها منذ سنين عديدة ، يراها مهددة بمرض صدرى عضال ، وكان يسعى كثيراً أن يحملها على السفر إلى جنوب فرنسا للاستشفاء ولكنها كانت ترفض بإصرار مغادرة « بطرسبورغ » .

غير أنه ، فى الخريف الأخير ، وقد أيقن الطبيب أنها هالكة توصل إلى إقناع زوجها الكونت ، بالإيعاز لها بالسفر إلى « مانتو » .

فاستقلت القطار وجلست فى مقصورة وحدها بالعربة ، أما خدمها ومرافقوها ، فقد شغلوا غرفة خاصة بجانبها . وهناك لبثت حزينة ، بقرب نافذة القطار تطل على الجبال والدساكر والقرى ، وهى تمر مراً خاطفاً أمام عينيها . بينما هى وحيدة منبوذة من الحياة ، ليس لها ولد ولا قريب ، غير زوج زال حبها من قلبه ، فألقى بها إلى البلد النازح كما يبعث السيد بتابعه العليل إلى مصحة دون أن يرافقه وعند كل محطة كان وصيفها « إيفان » يأتيها مستعلماً عما إذا كان هناك حاجة تنقصها . ولقد كان خادماً قديماً فى خدمة مولاته ، متفانياً فى إخلاصه لها ، مستعداً دائماً لإنفاذ كل رغبة أو إشارة . واعتكر الليل والقطار يدوّى ويهوى هوياً على السكة الحديدية ، وجفن « الكونتس » لم يغتمض لتهيج أعصابها وثوران نفسها . خطر لها فجأة أن تعدّ ماخلفه لها زوجها حين توديعه إياها من نقود ذهبية فرنسية . ففتحت حقيبتها الصغيرة وأفرغت منها على حجرها موجاً براقاً من المعدن المعى . ولكن على حين غرة هبت عليها نسمة باردة . وما كادت ترفع بصرها مذعورة مصعوقة من المفاجأة حتى أخذت قبضة باب العربة تتحرك وتهتز . فذعرت الكونتس وألقت بغتة على نقودها المنتشرة شالا كان فى حضنها ثم راحت تنتظر . ومرت لحظات ظهر بعدها رجل عارى الرأس ، جريح الذراع ، يلهث وهو فى ثياب المساء . فأغلق باب العربة وجلس يحدق بعينين لامعتين ، إلى جارته . ثم إنه ربط كفه التى كانت تقطر دماً بمنديل . فشعرت الصبية بالخوف يهدها هداً ، وتحقق لديها أن الرجل عاينها وهى تعد النقود ، وإنما أتى إليها كى يقتلها ويسلبها ماعندها . كان يحدق بها منبهر الصدر لاهث النفس متشنج عضلات الوجه ، وهو متهيئ لأن يهاجمها ويسطو عليها بلا ريب . وقال بغتة .

— لا تراعى منى أيتها السيدة . فلم تنطق بكلمة لعجزها عن فتح فمها رعباً ، واستمعت له وقلبها خفاق من الذعر ، وأذناها تطنان طنيناً مدوياً . قال لها .

— إنى لست فاتكا ولا مجرماً أيتها السيدة . بيد أنها ظلت ملتزمة جانب الصمت ، وبدت منها حركة فجائية ، اقتربت منها ركبتاها إلى بعضهما فجرى الذهب من حجرها إلى بساط الأرض ، كما يجرى الماء من الأنبوب . ودهش الرجل ، فأخذ يحدق فى هذا الجدول الجارى من الذهب ... ثم مال فجأة إلى الأرض لالتقاطه . أما هى فربعت ونهضت ملقية على الأرض جميع ثروتها ، ثم هربت إلى باب عربة القطار تود أن تقذف بنفسها ؛ غير أنه أدرك ما عزمت عليه ، فوثب من مكانه وأمسكها بيديه ، ثم أجبرها على الجلوس وقال لها وهى ترتعد بين يديه :

— إصغى إلى أيتها السيدة . لست شريراً ولا فاتكا ، ودليلى على هذا أنى سألتقط هذه النقود وأردها إليك ... إنى رجل هالك ومحكوم على بالموت ، إن لم تعينينى على اجتياز الحدود الروسية . وليس بوسعى أن أبسط لك القول أكثر من هذا . ففى خلال ساعة سنصل آخر الحدود الروسية ، فان لم تنجدينى إنى إذاً من الهالكين . ومع ذلك أيتها السيدة ، أقسم لك أنى لم أرتكب قتلا ، ولا اقترفت سرقة أو جرماً يسئ الشرف ويخدش الكرامة . أحلف لك على هذا ، وليس بمقدورى أن أزيدك فى القول . ثم جثا الشاب على ركبتيه ، وأخذ يلتقط النقود ، وينقب حتى عن أصغر قطعة متدحرجة منها ، وحين أفعمت محفظة النقود كما كانت ، ناولها لجارته دون أن ينبس ببنت لسان ، ثم انتقل وجلس فى الزاوية الثانية من عربة القطار ، وظل الإثنان ساكنين ، لا يبديان حركة ، ولبثت هى فى صمتها وسهومها وجمودها : أسيرة الخوف الذى بدأ ينجلى عنها شيئاً فشيئاً . أما هو فلم يظهر حركة أيضاً ، ولم يبد إشارة . بل استمر مستقيم الجلسة تحدق عيناه إلى الأمام ، ووجهه مصفر اصفرار وجوه الموتى .

على أنها كانت من حين لآخر ترميه بنظرة خاطفة . كان رجلا فى الثلاثين من سنيه ، شديد الفتنة سليم القسمات ، فى وجهه سمة النبل والاستقامة . وظل القطار يخترق حجب الظلام ، ملقياً فى أذن الليل الدامس صفارته الحادة الصارخة ، ولا يكاد يهدأ من سيره ويخفف قليلا من سرعته حتى يستأنف لجبه وهويه وهديره ، ولكن فجأة ، خفف من مشيته ، ثم انطلقت من قاطرته عدة صفارات ووقف تماماً عن السير .

وبدا الوصيف « إيفان » على باب الغرفة ، يتلقى أوامر سيدته فتأملت الكونتس مارى مرة أخيرة رفيقها الغريب ، ثم قالت لتابعها بصوت أجش

— إيفان ستعود إلى زوجى « الكونت » ، لأنى لست بحاجة إليك الآن . فصعق الرجل وأطل عليها بعينين مفتوحتين دهشة ثم تمتم :

— ولكن يا مولا ... فقاطعته

— لا ، لن تأتى معى ، لقد بدا لى فغيرت رأيى ، وأريد أن تبقى فى روسيا . هاك نفقة رجوعك ، وهيا ناولنى معطفك وقبعتك .

فتجرد الخادم المدهوش من معطفه ، وأنزل قبعته عن رأسه طائعاً دون كلمة ، لأنه تعود من مولاته كل إرادة فاجئة أو رغبة وهوى لا سبيل إلى مقاومته . ثم غادر عربة القطار ، وعيناه تفيضان من الدمع . وتحرك القطار ثم انقذف مخترقاً الحدود ، وحينئذ قالت « الكونتس » لجارها :

— هذه الملابس هى لك ياسيدى ، فأنت منذ الآن « إيفان » تابعى . على أنى اشترط عليك شرطاً واحداً جزاء ما قدمته إليك من جميل الصنع : هو أن لا تكلمنى ولاتفتح معى باباً من حديث ، سواء أكان من أجل شكرى ، أم من أجل توضيح هذا التصرف معك . فانحنى الرجل المجهول أمامها ملائماً ، ولم تتحرك شفتاه بكلمة . وبعد قليل وقف القطار من جديد ، ثم طفق موظفون بملابس وبذلات خاصة ، يفدون إلى عربات القطار ، فمدت الكونتس إليهم أوراق السفر ، ثم أشارت إلى الرجل الغريب القابع فى زاوية العربة وقالت :

— هذا تابعى « إيفان » ، وها كم جواز سفره . واستأنف القطار جريانه وهديره ، ومر عليهما الليل بطوله ورأسها إلى رأسه لا ينطق ولا تنطق . وأقبل الصباح وقد جاز القطار قرية ألمانية فنزل الرجل المجهول من العربة ، ثم وقف على بابها يقول :

— اعذرينى أيتها السيدة ، إذا أخللت بشرطى معك ... ولكنى حرمتك من خادمك ، فمن الظرف والعدل ، أن أحل

مكانه ... هل أنت محتاجة إلى أمر أنفذه ، فقالت في برود.

— نعم استدع وصيفتي ، فغادر العربة ليقوم بما أمرته ثم اختفى عنها ...

ولما نزلت إلى مشرب المحطة « بوفيه » ، بصرت به عن بعد يرامقها النظر ثم ... ثم بلغ القطار « مانتون » .

وسكت الطبيب المتحدث لحظة ، ثم واصل كلامه يقول : في ذات يوم ، بينما كنت أتقبل زبائني في عيادتي ، شاهدت فتى غرانقاً يدخل عليّ ويقول :

— سيدي الطبيب ، لقد جئت أستعلم منك ، عن صحة الكونتس « ماري بارانواي » فإني برغم كوني نكرة عندها ، صديق وفيّ لزوجها . فأجبته في أسى : إنها مشرفة على التلف ، ولن ترجع إلى روسيا ثانية . فاستخرط الفتى في بكاء مرّ . ثم نهض خارجاً من الغرفة ، وقد رنحه الخبر ومال بعطفه .

وفي نفس المساء ، أنهيت إلى الكونتس ، بأن غريباً جاء يستخبرني عن أنباء صحتها ، فبدا عليها التأثر ، وراحت تقص كل ما سردته على مسمعكم ثم أضافت .

— هذا الرجل الذي ما كنت أعرفه قبل ذلك الوقت ، يتبعني الآن كظلّي . وإني لألتقي به الآن دائماً ، في مراحي ومغداي . وأراه ينظر إليّ نظرات غريبة دون أن يناقلني الحديث ، ثم أطرقت لحظة واستأنفت .

— انظر . إني لأراهنك على أنه الآن ، واقف تحت نافذتي . قالت هذا ، ثم غادرت كرسيها الطويل ، وراحت تزيح الستار عن النافذة . فإذا بها تبصر الرجل الذي استقبلته في عيادتي . وكان جالساً على مقعد من مقاعد النزهة ، وعيناه شاخصتان إلى نافذة الفندق . وبمشاهدته إيانا ، نهض وابتعد دون أن يلتفت إلينا ...

ومنذ يومئذ ، كنت شهيد مأساة غريبة : لحب صامت أخرس ، يقوم بين شخصين لا يعرف كل منهما عن الآخر شيئاً . أما هو فقد كان يتعلق بها قلبه ، وتهفو إليها جوانحه . بإخلاص الحيوان الشاكر منقذه من الموت . وفي كل مساء كان يزورني متلهفاً .

— كيف حالها يا سيدي ؟ يقول هذا وهو يعلم أني أفهم من يقصد . ولقد كان يستعبر عبرة ، حين يعلم أن الضعف والمرض كانا يتخونانها يوماً بعد يوم . وكانت هي تقول لي :

— إني لم أحاوره في حياتي إلا مرة واحدة . ومع ذلك يخيل إلى أني أعرفه منذ عشرين سنة . وكانا حين يلتقيان صدفة ويحييها ترد إليه تحيته في ابتسامة وفورة فاتنة . وكنت أشيم دلائل السعادة في وجهها : فهي المهجورة المتروكة من الزوج والأهل ، وهي التي استيقنت من موتها القريب ، كان يشيع في وجهها الرضى والإطمئنان أن ترى نفسها محبوبة بمثل هذا الإحترام الخالص والشاعرية المتهيبة والإخلاص المحض ومع هذا كانت ترفض بيأس استقباله والتعرف إلى شخصه أو اسمه . حتى ومكالمته ولو بكلمة ولقد كانت تقول :

« لا ، لا . إن ذلك ليفسد علينا ما نحن فيه من صداقة غريبة . وينبغي لكل منا أن يظل غريباً عن الآخر » .

وفي الحق ، لقد كان هذا الشاب ، صورة ثانية لشخصية « دون كيشوت » لأنه لم يحاول مرة الإقتراب منها ، كأنما كان يريد أن يستمسك حتى النهاية بالوعد الذي قطعه على نفسه في القطار : أن لا يحدثها أبداً . وفي الغالب ، حين تشتد عليها نوبات مرضها وضعفها ، كانت تنهض من كرسيها ، وتروح تزيح الستار عن النافذة ، لترى إن كان هو هناك يرقبها ؛ وإذ تبصره جالساً على المقعد جلسته المتأملة الساكنة ، تعود إلى كرسيها وعلى شفتيها بسمة الرضى والسعادة ...

وماتت الكونتس ، في الساعة السادسة من صباح ذات يوم . فبينما كنت خارجاً من الفندق أقبل عليّ الفتى منطفىء اللون بادي الإضطراب . وكان على علم بالنبأ الأليم فقال ملتاعاً :

— أتمنى عليك يا سيدي رؤيتها لحظة . ولو أمامك . فرافقته إلى غرفة المتوفاة . ولما مثل أمام سرير الميتة ، تناول يدها وأخذ يلثمها لثمات حراراً طويلة ما لها نهاية ... ثم انفلت من الغرفة كمن فقد صوابه . وصمت الطبيب من جديد ، ثم قال :

ها كم يا سادتي أغرب حادثة أعرفها عن السفر ، ويجب الإعتراف بأن الرجال مصابون بالخبل . فتمتمت امرأة بصوت خافت :

— إن ذينك المخلوقين اللذين ذكرت هما أقل خبلا وجنونا مما تظن . لقد كانا ... لقد كانا . بيد أنها لم تستطع متابعة جملتها لأن البكاء قطعها عليها . وبما أن الحاضرين انحرفوا بالحديث عن وجهته كي يهدئوا جأشها ، لم يعلم أحد أبداً ما كانت المرأة تود أن تتم به كلمتها ... لقد كانا ...

(حلب) كمال الحريري